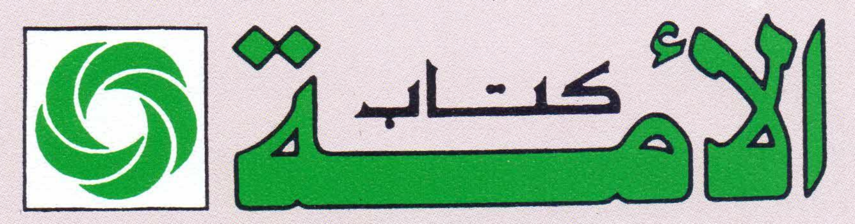


سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن وقفية الشيخ علي بن عبدالله آل ثاني للمعلومات والدراسات - قطر

عدد : ١٢١ رمضان ١٤٢٨هـ السنة السابعة والعشرون

الحضارة الإسلامية

جذور وامتدادات



د. سعاد رحائم

سعاد رحائم

* من مواليد المغرب.

* درجة دكتوراه الدولة.

* تعمل أستاذاً للتعليم العالي بكلية الآداب والعلـــوم الإنسانية بمدينة الجديدة (المغرب).

* عضو مجموعة البحث في حوار الحضارات.

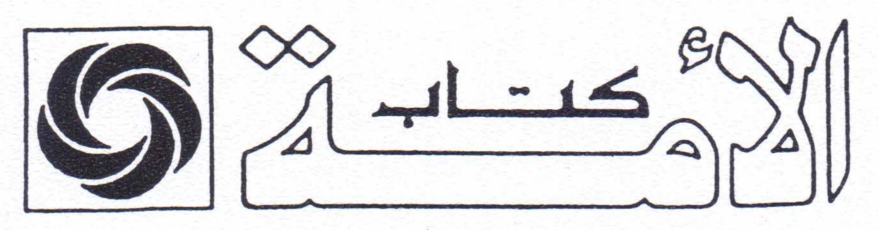
* صدر لها كتاب بعنوان: «مدونة الأســـرة بـــين الاجتهاد والنص القانوني».

* لها عدد من الدراسات والأبحاث المنشورة من أهمها:

- البناء المعرفي ونهضة الأمة.

- المرأة ودورها في تنشئة المجتمع.

- خصائص الأسرة الفاضلة.



سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن وقفية الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني للمعلومات والدراسات
ص.ب: ٨٩٣ الدوحة - قطر

من شروط النشر في السلسلة

- أن يهتم البحث بمعالجة قضايا الحياة المعاصرة، ومشكلاتها، ويسهم بالتحصين الثقافي، وتحقيق الشهود الحضاري، وترشيد الأمة، في ضوء القيم الإسلامية.
- أن يتسم بالأصالة، والإحاطة، والموضوعية، والمنهجية.
- أن يشكل إضافة جديدة، وألا يكون سبق نشره.
- أن يُوثّق علميًا، بذكر المصادر، والمراجع، التي اعتمدها الباحث مع ذكر رقم الآيات القرآنية، وأسماء السور، وتخريج الأحاديث.
- أن يبتعد عن إثارة مواطن الخلاف المذهبي، والسياسي، ويؤكد على عوامل الوحدة والاتفاق.
- يفضل إرسال صورة عن البحث، لأن المشروعات التي ترسل لا تعاد، ولا تسترد، سواء اعتمدت أم لم تعتمد.
- ترسل السيرة الذاتية لصاحب البحث.
- تقدم مكافأة مالية مناسبة.

هذا الكتاب.. يحاول التأصيل لبعض السمات الحضارية، ويقدم الشواهد علـــى دور الحضارة الإسلامية الإنساني وعطائها المعرفي، ودورها في تطوير العلوم والمعارف، وتخليصها للإنسان من الثنائيات العقيمة التي وضعتها الفلسفات المادية وأدت إلى تشطيره.

ذلك أن حضارة التوحيد تتميز تاريخياً بتخليص الإنسان من الظلم والتأله والاستكبار والعبودية لغير الله، وإشاعة قيم الحرية والعدل والمساواة وحقوق الإنسان واحترام إنسانية الإنسان، حيث مقصدها الأساس إخراج الناس من عبادة العباد، ذلك أن معظم الـــشر في الدنيا سببه تسلط الإنسان على الإنسان.

إضافة إلى ما تتميز به الحضارة الإسلامية من قيم ومعايير خالدة ومثمرة متأتية مـــن الوحي وخارجة عن وضع الإنسان، الأمر الذي يحمي مسيرتها، ويضمن لها الخلود والبقاء والقدرة على علاج الوهن الحضاري، الذي يلحق بالأمة في فترات السقوط، ويؤهلها إلى معاودة النهوض.

والكلام عن تميز الحضارة الإسلامية ليس للمساهمة بالفخر السلبي الذي يكرس العجز والتخاذل، وإنما ليكون محرضاً حضارياً لعله يدفع أجيال الأمة للتفتيش عن مواطن الخلـــل والإصابة في سعيها لمعاودة الإقلاع من جديد.



موقعنا على الإنترنت: www.islam.gov.qa
البريد الإلكتروني: E-Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa

مطابع الراية - قطر

الحضارة الإسلامية

جذور وامتدادات

د. سعاد رحائم

الطبعة الأولى

رمضان ١٤٢٨هـ

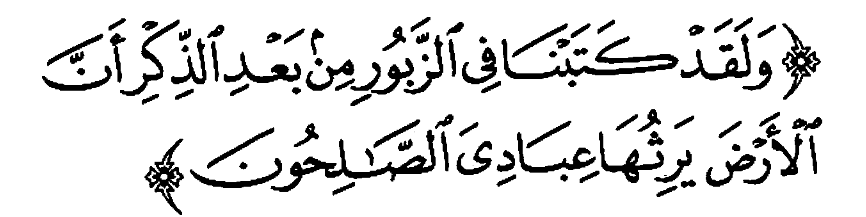
أيلول (سبتمبر) – تشرين أول (أكتوبر) ٢٠٠٧م

سعاد رحائم
الحضارة الإسلامية.. جذور وامتدادات
الدوحة: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ٢٠٠٧م.
١٦٨ص، ٢٠سم - (كتاب الأمة، ١٢١)
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية: ٦٥٣ لسنة ٢٠٠٧
الرقم الدولي (ردمك): X-٦٥-٨٠-٩٩٩٢١
أ. العنوان ب. السلسلة

موقعنا على الإنترنت : www.awqaf.gov.qa

البريد الإلكتروني: E. Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa

يقول تعالى:



(الأنبياء: ١٠٥)

تقديم

عمر عبيد حسنه

الحمد لله الذي جعل الوراثة الحضارية قانوناً اجتماعياً وسنة مطردة لا تتحقق إلا بتوفير خصائص وصفات الصلاح وامتلاك إرادة ومقومات الإصلاح وأدواته في من نذر نفسه للاضطلاع بهذه المهمة الثقيلة، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء:١٠٥)، ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٦)، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧).

والصلاة والسلام على نبي الرحمة الإنسانية، ووريث النبوة وتجربتها التاريخية، تلك التجربة التي أكدت سنة التداول الحضاري، وأن الحضارة لم تكن في يوم من الأيام حكراً على قوم أو جنس أو لون أو جغرافيا، وإنما هي خصائص وصفات مكتسبة لا مندوحة عن التحلي بها للتأهل لبناء الحضارة وإدارتها وقيادتها؛ واستقراء التاريخ الإنساني شاهد على الكثير من الحضارات التي سادت ثم بادت وتحللت وسقطت؛ وكان ذلك بسبب انتقاص هذه الخصائص وشيوع الفساد وظهوره بما كسبت أيدي الناس؛ ذلك أن الحضارة هي فعل بشري في نهاية المطاف، وأن غاية الحضارة الإسلامية ومقصدها تحرير الإنسان وإلحاق الرحمة بالعالمين

جميعاً.. ومن هنا كانت الغاية من النبوة أو الرسالة أو الرسول هي إلحاق الرحمة بالناس جميعاً.

ولعلنا نسارع إلى القول: إن الحضارة الإسلامية، هي من بعض الوجوه خلاصة لحضارة النبوة وتجربتها، وهي جماع القيم السماوية عبر تاريخ الإنسان، وهي الحضارة التي استطاعت الامتداد والعطاء الإنساني على الرغم من خضوعها لقانون السقوط والنهوض الحضاري وخضوعها للمد والجزر حسب توفر الخصائص الحضارية أو انتقاصها؛ ذلك أن هذه الحضارة، شأن سائر الحضارات، هي إنتاج بشري إنساني خاضعة للخطأ والصواب والسقوط والنهوض، لكنها تختلف أو تتميز عن غيرها من الحضارات بأنها جهد بشري مؤطر بقيم الوحي الهادية في الكتاب والسنة، أي أنها تمتلك المعايير، تمتلك القيم والأفكار المجردة عن فعل الإنسان، الخارجة عن وضعه، فإذا وهنت أو سقطت أشياء الحضارة (إنتاج الإنسان) فلا يعني ذلك ولم يعن تاريخياً موت الحضارة، ذلك أن القيم والأفكار والثقافة التي ترتكز إليها الحضارة الإسلامية هي قيم خالدة، قادرة على معاودة انتشال الإنسان، كما أنها قادرة على معاودة الإنتاج كلما استطاعت أن تصوِّب مسيرتها في ضوء قيم الوحي؛ لذلك نرى الحضارة الإسلامية تميزت على سائر الحضارات في التاريخ بقدرتها على البقاء والاستمرار ومعاودة النهوض والبقاء.

وبعد:

فهذا «**كتاب الأمة**» الحادي والعشرون بعد المائة: «الحضارة الإسلامية.. جذور وامتدادات»، للدكتورة سعاد رحائم، في سلسلة «**كتاب الأمة**» التي تصدرها وقفية الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني، رحمه الله (مركز البحوث والدراسات سابقاً) في دولة قطر، مساهمة منها في العمل على معاودة النهوض الحضاري للأمة، وتصويب مسيرتها، وبيان مواطن الخلل والإصابات التي لحقت بالحضارة الإسلامية فأقعدتها عن أداء دورها، إضافة إلى بيان الأثر السلبي الذي لحق بالعالم بسبب غياب القيم الإسلامية عن مسيرة الحضارة الإنسانية، وتأكيد المنهج السنني الذي لا يتخلف عن حكم الأنفس والآفاق، يحكم أفكار الحضارة ويتحكم بأشيائها، وأهمية اعتماده في المحاولة لإعادة بناء الأنفس، مواطن التغيير الأساس، فلا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وبيان سبيل ووسيلة هذا التغيير، الأمر الذي يتطلب فهم السنن الناظمة للحياة، وامتلاك القدرة على تسخيرها في المدافعة، أو مغالبة قدرٍ بقدر، واسترداد الفاعلية، والتمييز بين القدر والحرية، وبناء القدرة للإفادة من رصيد التجربة التاريخية، والتحقق بالعبرة والخبرة المعاصرة، والتأكيد على أن جذور الإنسان المسلم المؤمن بالرسالة الخاتمة ضاربة في تاريخ البشرية، فهو ليس عرضاً موقوتاً وشخصية مهزوزة يسهل اقتلاعها، وإنما هو إنسان خالد ممتد الجذور في عمق التاريخ، ابتداءً من النشأة الأولى - نبوة آدم - ومروراً بالأنبياء

جميعاً، عليهم السلام، وانتهاءً بالرسالة الخاتمة، التي اجتمعت لها أصول الرسالات وتجاربها.

فالمؤمن بالرسالة الخاتمة مؤمن بالنبوة التاريخية، وهذا الإيمان ركن من أركان إيمانه بالرسالة الخاتمة، ومثاب على هذا الإيمان، كما لو كان في عصرها.. فنبوة الأنبياء جميعاً رصيده الفكري والتاريخي والحضاري وحتى ينشأ الله النشأة الآخرة؛ فهذا الوريث للنبوة وتجربتها، وهذه الخلاصة للرحلة الإنسانية التي يمتلكها، كيف يمكن أن يفيد منها وأن يضطلع بدوره لإلحاق الرحمة للعالمين؟

إن معاودة إخراج هذا الإنسان، وسيلة حضارة الرحمة وغايتها، ومن ثم إقامة حضارة الرحمة، يتطلب الكثير من الجهد والمجاهدة والاجتهاد والبصيرة والخطأ والصواب، وهذه المجاهدات والمعادلات هي في النهاية جدلية الحياة وسنتها في المدافعة والصبر والمصابرة، حتى تتحقق الوراثة الحضارية، والمهم أن يستوعب عباد الله العابدون هذا البلاغ ﴿ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴾ ذلك أن إدراك هذا البلاغ، بأبعاده جميعاً، هو السبيل للاضطلاع بالمهمة لإقامة حضارة الرحمة وتحقيق العبودية: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾.

فإشكالية قيام الحضارات وسقوطها تاريخياً إنما تمحور حول محاولات التسلط والتأله والعبودية من الإنسان على الإنسان؛ ذلك أن مهمة الأنبياء كانت ولا تزال إيقاف التسلط وإلغاء التأله وتحرير الناس من عبودية العباد،

وذلك لا يكون أو يتحقق إلا بالعبودية للإله الواحد، بعقيدة التوحيد؛ فالتوحيد يعني التحرير والمساواة بين بني البشر واسترداد إنسانية الإنسان.. والظلم والتأله والهيمنة والتسلط كانت ولا تزال هي دابة الأرض، التي تأكل منسأة الحضارة، وتؤذن بسقوطها؛ من هنا كانت قولة الأنبياء جميعاً، أو كانت دعوة النبوة وحضارتها: ﴿ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ (هود: ٥٠)، ومن هنا أيضاً كانت المواجهة بين النبوة وبين الكبراء المتألهين، بين الإيمان بالله الواحد وبين الطاغوت، حيث محاربة الإيمان بالله الواحد من الكبراء إنما هي في الحقيقة لأنه يسويهم بغيرهم من البشر ويلغي تسلطهم وامتيازاتهم وهم يحاولون أن يجعلوا من أنفسهم آلهة تتصرف بمصائر الناس وأرزاقهم، فالنبوة في سعيها التاريخي إنما جاءت لمعالجة هذه المعضلة الحضارية وتحرير الإنسان من عبودية العباد.

ونستطيع القول: إن خاتمة الرسالات بما قدمت من وحي وفكر وفعل هي أول من أوقف التسلط، مصدر الشر في العالم، وفك الارتباط بين الألوهية والحكم، حيث كان الحكام آلهة بكل معنى الكلمة، وكانوا يدعون أن إرادتهم من إرادة الله، وعلى ذلك فإن فعلهم لا يُعَارَض ولا يُناقش؛ لأنه تنفيذ لإرادة الله، وأن معصيتهم هي معصية لله.. ولم يكن رجال الدين، المتحدثون باسم الله، بأقل خطورة على حياة الناس ومصائرهم وابتزازهم من الحكام المتألهين، بل لعلنا نقول: إن رجال الدين

والكهنة كانوا دائماً في حلف غير مقدس مع الطغاة المتألهين، فكانت حضارة الجبت والطاغوت في مواجهة حضارة النبوة والتوحيد؛ وتلك سنة الحياة، فالشر من لوازم الخير، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ (الفرقان: ٣١).

والذي نريد أن يكون واضحاً ابتداءً أن الحضارات بشكل عام، بما في ذلك حضارة النبوة تاريخياً، إنما هي جهد بشري، إنتاج بشري، وليست الحضارة الإسلامية سوى إنتاج بشري أيضاً، وهي بطبيعة بشريتها تبقى خاضعة للسقوط والنهوض والخطأ والصواب كلما توفرت لها عوامل ذلك، والمسلمون في تاريخهم الطويل، وخاصة بعد مرحلة الأنموذج وما ترافق معه من حراسة الوحي وتسديده في عصر النبوة، هم مجتمع بشري، له أخطاؤه وانتكاساته وليس مجتمع ملائكة معصومين ومبرمجين على فعل الخير؛ والإنسان بطبيعة تكوينه تتعاوره دوافع الخير ونوازع الشر، لذلك فأقدار الإيمان لا تثبت على حال، فهي تزيد وتنقص، كما هو المشاهد عملياً والمعلوم علمياً وشرعياً؛ وهذا الإيمان دائماً يمثل شعلة الحضارة ووقودها، فإذا خبا تدنت وتقهقرت وتراجعت وإذا توهج واتقد ارتقت وتسامت واتسع عطاؤها وازداد خيرها.

فالحضارات جميعها هي وضعية، من وضع الإنسان وإنتاجه، لكن الفرق بين حضارة النبوة وحضارة الكبراء، حضارة الإيمان وحضارات

الجبت والطاغوت، أن حضارة النبوة تمتلك فلسفة للحياة ورؤية ودليلاً لإدارتها والتعامل معها، تمتلك بوصلة ووجهة ومقاصد واضحة؛ لأنها مؤطرة بمعرفة الوحي، تمتلك قيماً تقوِّم وتسدد بها مسيرتها، وتحدد في ضوئها مواطن الخلل، وتمتلك بها إمكان المعاودة والنهوض من جديد، لذلك فحضارة النبوة حضارة قيم وأفكار، قادرة على التجديد، خالدة، قادرة على الإنتاج في كل زمان ومكان وإنسان، وحضارة الطاغوت بائدة مهما طال عمرها.

ويمكن أن نقول: إن حضارات الطاغوت بمجملها حضارة إنجاز وإنتاج مادي، أو إن شئت فقل: حضارة أشياء، وتلك الحضارات إذا سقطت أشياؤها أو أسقطت بفعل غزو أو حرب أو جائحة انتهى عمرها، أما حضارة النبوة فهي حضارة القيم والأفكار والمعايير والثقافة، حضارة فكرة وعقيدة، إلى جانب إنتاجها المادي، وهذه بطبيعتها قادرة على معاودة النهوض حتى ولو سقطت أشياؤها وإنتاجها المادي؛ لأن تصاميم الفعل ومخطط البناء متوفرة، والأفكار والقيم القادرة على بناء الرؤية واسترداد الفاعلية جاهزة للإقلاع أكثر من مرة، حتى ولو توقفت في بعض المحطات بسبب من خلل أو كسل أو وهن، هذا إضافة إلى أن حضارة النبوة لها من وجود المعايير والقيم ما يشكل ضبطاً للمسيرة وتحديداً للوجهة ويشكل ذهنية للمراجعة وتحديد مواطن الخلل، فإذا سقطت الأشياء بقيت خميرة النهوض قائمة.

وهذا ما يميز حضارة النبوة ويضمن استمرارها وامتدادها وخلودها، إنها الخمائر الحضارية الخالدة على الزمن، القادرة على التفاعل وإثارة الفاعلية والتحريض الحضاري.

أما الحضارات الوضيعة الأخرى فتفتقر لهذا جميعه، وعلى أحسن الأحوال- وهذا موطن الخلل والأرضة التي تُسقط الحضارة وتنخر في جسمها- يكون الإنسان فيها هو معيار الحضارة وهو وسيلتها وهو محلها، أما في حضارة النبوة فالمعيار هو قيم خارجة عن وضع الإنسان ومسوغاته وذرائعه وفلسفته في تسلطه على بني جنسه.

لذلك نعاود القول: إن المسلمين مجتمع بشري، له أخطاؤه وصوابه، وليسوا مجتمع ملائكة معصوماً عن الخطأ، وفي ضوء ذلك فتضاريس الحضارة الإسلامية طبيعية، فيها الكثير من الفجوات والصعود والهبوط، وهي ليست فعلاً أو إنجازاً مقدساً معصوماً فوق النقد والمراجعة، بل هي دائماً تكاد تكون أكثر من غيرها عرضة للمراجعة والتقويم بقيم الوحي القائمة عليها وتحديد الخلل، وإن لم تتم هذه المراجعة وهذا التقويم والتصويب يُخشى أن تفتقد إسلاميتها.

وهذه الحقيقة قد يكون من المفيد تأكيدها بالبيان والممارسة حتى تنزع القداسة الموهومة، التي قد تحول دون النقد والمراجعة وتحديد مواطن الخلل والسقوط في الحضارة الإسلامية.

إن جو الإرهاب الفكري، الذي تُحاط به الحضارة الإسلامية، والادعاء بأنها معصومة عصمة القيم في الكتاب والسنة، والالتباس بين الفعل والقيمة (المعيار) عطّل آلية النقد والمراجعة، كما عطّل الإفادة منها في تحقيق العبرة لحاضر الأمة ومستقبلها، ذلك أن التوهم بقدسيتها دفع بالكثير إلى الانحياز العاطفي، وشكل الكثير من مواقف الدفاع عن عثراتها والتماس الأعذار وإبداع الفلسفات من هنا وهناك لحمايتها، حتى وصل الأمر ببعض المتحمسين أو الحمس للدفاع عن الأخطاء وإجهاد أنفسهم بتسويغها، وهذا أدى إلى تكريس الأخطاء، وتعطيل فاعلية الأمة، وشل قدراتها، وإجهاد النفس للدفاع عنها بالحق والباطل، ومطاردة كل رأي ونقد ومراجعة لتاريخ هذه الأمة.

وقضية أخرى قد لا تقل خطورة عن هذا الانحياز العاطفي أو الدفاع الأعمى، بل لعلها فرع عن ذلك، وهي محاولة الاقتصار على التوقف عند الجوانب المضيئة وإبرازها وتعظيمها وحتى الوصول بها إلى مراتب الإعجاز، واستحالة المقاربة، بل ومجافاة الواقعية والمنطق، وفي ذلك ما فيه من الخطورة على أجيال هذه الحضارة وإصابتها بالعجز عن مطاولة عظمة الحضارة وحتى محاكاتها، وكأن الإسلام إنما جاء لصناعة حضارة لعصر معين ثم انتهى(!) وفي هذا ما فيه من محاصرة فكرة الخلود والامتداد واستمرار العطاء، أو بمعنى آخر تحولت إلى حضارة تاريخية لا يمكن استردادها ومعاودة إنتاجها.

وليس أقل من ذلك خطورة محاولة عسكرة الحضارة والتاريخ وإعطاء انطباع على أنها حضارة القوة والقهر والنصر والإكراه، علماً بأن الواقع غير ذلك، فالبلاد التي فتحها المسلمون بشروط الفتح وأحكام وآداب الجهاد المعروفة لا تعدل خمس بلاد العالم الإسلامي التي أسلمت طوعاً وقناعة وساهمت بحضارة الإسلام واعتبرتها حضارتها.

إن الاقتصار على الجوانب الحضارية المضيئة في تاريخ الأمة، والمسلمون مجتمع بشري له غلطه وصوابه، له سقوطه ونهوضه، له نجاحاته وارتكاساته، له تألقه وجموده، له نجاحه ورسوبه، وليس مجتمع ملائكة -كما أسلفنا- يحمل من الخطورة الكثير، حيث يحول دون القدرة على التعامل مع الجوانب السلبية وكيفية تجاوزها، خاصة وأن الحياة فيها المظلم والمضيء، وقد كان ذلك في مرحلة القدوة والعصمة، فترة النبوة، فكيف لا يكون في مراحل التاريخ والحضارة التي لا وحي فيها؟! إضافة إلى أن ذلك يؤدي إلى تحويل الحضارة الإسلامية إلى ضرب من المثالية والخيالية وحتى الطوباوية، ويجعلها فوق طاقة تعاطي البشر وإفادتهم.

ولقد أورث هذا، فيما نرى، ذهنيةً مصابة، تشكلت على الفخر بالإنجاز الحضاري الإسلامي التاريخي والزهو بما قدمت الحضارة للإنسانية في شعب العلوم والمعرفة المتنوعة، كتعويض لمركب النقص ومعالجة عقدة التخلف والعجز عن الإنتاج، على حساب الواقع البئيس.

والسؤال الكبير لم يجب عليه إلا أقل القليل: هذه الحضارة، التي أنجزت ما أنجزت، لماذا أصيبت بالعقم وعدم العطاء، وأين الخلل في مسيرتها وفي تعامل أجيالها معها وإفادتهم منها؟ وكيف يمكن تجاوز الواقع إلى إنجاز حضاري مأمول؟

إن الفخر بالحضارة الإسلامية إذا تجاوز القدر المحرض للأجيال المتتالية لمتابعة المسيرة يتحول إلى عامل مرضي، يكرس عجز الأمة وتخلفها، وقد لا يقل هذا خطورة عن الكلام الطويل العريض الذي يملأ الساحة اليوم عن الإعجاز العلمي للقرآن والسنة، والاستدلال لذلك بالاكتشافات المبكرة للحقائق العلمية، والاستغناء بذلك عن الإنجاز العلمي المعاصر وحسن اختيار العمل الجدي.

وقد تكون الإشكالية الكبيرة اليوم، في ذهنية الكثير من المسلمين، تتمثل -كما أسلفنا- في الافتخار دون الاعتبار، لتعويض مركب النقص، ولهذا من الخطورة ما له، الأمر الذي يُخشى منه المساهمة السلبية بإجهاض القيم الإسلامية والإيمان بقدرتها على العطاء في كل زمان ومكان.

كما أنه قد يدفع الكثير من العاجزين عن التفريق بين الصورة والحقيقة، بين الذات والقيمة، إلى التفتيش عن إجابات لأسئلتهم وواقعهم عند حضارات أخرى، وإطلاق الأحكام الجائرة على حضارة الإسلام، والتوهم بأن إشكالية التخلف والعجز إنما هي بسبب التمسك بالقيم

الإسلامية، التي لا تقدم حلولاً لمشكلات الإنسان اليوم، وليست بسبب البعد عن هذه القيم وكيفية التعاطي معها وحسن تنـزيلها على واقع الناس بحسب استطاعاتهم.

وليس أقل من ذلك خطورة ما ذهب إليه كثير من المتخصصين بالنقاط السود والجوانب السلبية في الحضارة الإسلامية، وتناولها بالكثير من التهويل والتضخيم، فلم يروا من الحضارة إلاّ البقع السوداء التي عمموها وأنكروا كل خير وعطاء، وعجزوا عن رؤية كل الإنجازات الحضارية الإنسانية.

وبعض الباحثين أو المؤرخين مع الأسف الشديد، يدفعهم حماسهم باسم الدفاع عن التاريخ والحضارة، إلى الوقوع في فخاخ تاريخية قد تنصب لهم، بحيث ينصرف كل جهدهم لتعميق جراحات الأمة، وذلك بالعمل على استرداد فتنها، وحمل الحطب التاريخي لإيقاد المعارك من جديد وقد ذهب زمانها ورجالها ومشكلاتها، وإخلاء الساحات المجدية للعمل، باسم الدفاع عن التاريخ والحضارة والحيلولة دون تشويهها(!) وهذا قد يذكرنا إلى حدٍ بعيد بقولة سيدنا عبد الله بن عمر بن الخطاب، رضي الله عنهما، عندما حاول بعضهم أيام الفتنة الكبرى أن يعيب عليه عدم خروجه للقتال استجابة لقوله تعالى: ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ (الأنفال:٣٩)، عندما قال له: «قَاتَلْنَا حَتَّى لَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ

وَكَانَ الدِّينُ لِلَّهِ، وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تُقَاتِلُوا حَتَّى تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِغَيْرِ اللَّهِ» (أخرجه البخاري).

فكم نحن بحاجة إلى إعادة القراءة والتفكير والتأمل والمراجعة حتى لا نقاتل لتكون فتنة، وبذلك فقط نكون قادرين على محاصرة الجوانب السلبية، وتنمية الجوانب الإيجابية؛ ذلك أن بعض الناس ما تزال تستهويهم الفتن وبها يظهرون، ولا يرون في تاريخنا وحضارتنا إلا تاريخ الفتن والاقتتال والاغتيال، ويعجزون عن إدراك كل الجوانب الإيجابية وامتلاك القدرة على الامتداد والاعتزاز والإغراء بها.

والأمر المحزن حقاً أن معظم جهودنا الفكرية تنصرف اليوم إلى الحديث عن عظمة الحضارة الإسلامية، وعبقريتها، وإنجازها التاريخي، وإنسانيتها، وعمق جذورها، واتساقها مع مكونات الإنسان، والقليل القليل من هذه الجهود الذي يتحدث عن أسباب تخلف المسلمين، وكيفية الإفادة من حضارتهم، وكيفية الاعتبار بها، والتعاطي معها، ووسائل استئناف دورها الإنساني، واكتشاف أين الخلل في مسيرة الأمة.

فالبحوث والدراسات التي تتجه صوب التحليل والمراجعة والنقد والتخطيط المستقبلي في فكرنا الحضاري أندر من النادر، وكأن العقل المسلم، الذي أضاء في القرن السابع الهجري بابن خلدون وابن تيمية والشاطبي عاود الانطفاء مرة أخرى، حيث ما نزال نعيش على إنتاج ورؤية واسترداد هؤلاء الرواد، الذين حاولوا مراجعة الواقع الإسلامي في

ضوء قيم الوحي، وفتحوا ثغرة في جدار التخلف، لأننا ما نـزال عند حدودها دون القدرة على الامتداد فيها.

وقد يكون من المفيد أن نلقي ولو ضوءاً بسيطاً على رؤية «ابن خلدون»، ولا يفوتنا هنا أن نقول: بأن (الآخر) أفاد من منهجه في النقد والتاريخ والحضارة أكثر من المسلمين، الذين يعيشون حالة التخلف:

«نظر ابن خلدون إلى طبيعة الدولة الإسلامية ومقوماتها، وفكك الأصول التي قامت عليها، وبيَّن الواقع الذي آلت إليه، ورجع إلى النفسية الفردية للمسلم، بين عهد السلف وعهد الخلف، يضبط حقيقتها، ويجعل من اختلاف الحقيقتين سبباً لاختلاف المظهرين الاجتماعيين، من حيث تتمثل الصورة الاجتماعية للأمة في ما يصدر عنها في كل عصر، من مدارك الحضارة والثقافة، على اختلاف ذلك قرباً وبعداً من حقيقة الدين ومن حقيقة المظهر المثالي الكامل، الذي ينبغي أن يبرز فيه المجتمع الذي يتكوَّن بهذا الدين، فجعل شؤون السياسة والعمران والصناعة والعلم في الدولة الإسلامية تبعاً لشأن الدين، وجعل الحقيقة الأولى للدين، التي هي العقيدة الفردية، أصلاً وأساساً لذلك كله، فأخذ يدرس مشكلة فساد الدولة وركود ريح العمران في عصور الإسلام اللاحقة عن عصوره السابقة، وانتقاص الصنائع، وتلاشي ملكات العلوم، واختلال طرائق التعليم في الأمصار الإسلامية لعهده، جاعلاً ذلك كله راجعاً إلى اختلال

الحقيقة الأولى للدين، التي هي أساس العمران الناشئ به والدولة القائمة عليه، أعني العقيدة الدينية.

فردّ ذلك كله إلى صورة تكوّن الفرد تكوّناً إيمانياً، يرتبط من جهة بالدين الإسلامي في عقيدته ويسري منه إلى كل ما انبثق عن تلك العقيدة من مظاهر عمرانية وصناعة فكرية.

وإذا كان الناس يكتفون بأن يعللوا ما بدا في حياة المجتمع الإسلامي وحضارته من إخلال بما يرجع إلى نظم الحكم، وصور الدول، وما شاع من فساد الخلق، وتفكك الروابط الاجتماعية، فإن ابن خلدون يطلب لهذه العلل عللاً، ويرد هذه الأسباب إلى أسباب وراءها، حتى يظهر أنها وإن أثرت في أوضاع الحضارة والثقافة تأثيراً مباشراً فليس ذلك التأثير بأصلي ولا جوهري، أنها هي بذاتها تأثرت بما تكيف به العامل الأصلي من كيفية مختلة، فبقيت صالحة مستقيمة ما استقام ذلك العامل الأصلي وصلح، وآلت إلى الاختلال والفساد لـمّا آل أصلها ومنشؤها إلى ذلك.

فالناس جميعاً يدركون أن حالة الحضارة والثقافة، من حيث قابلية الإنشاء وقوة الصعود وحرارة المزاج في عهد الخلفاء الراشدين، غير حالة الحضارة والثقافة في آخر العهد العباسي، وإن كانت المظاهر أقوى والأعداد أكثر، فإن العبرة بالروح المنتمية لا بالأشباح النائشة على إلف الأوضاع المستقرة الموروثة.

فحضارة الإسلام المعتد بها، هي الصورة اليقظة الفكرية، والهمّة الإنشائية، التي تولدت من حرارة إيمان المسلمين في الأجيال الأولى، فمكنتهم من أن يخرجوا عن المحيط الإقليمي، إلى المحيط العالمي، وأن يتناولوا المعارف كلها بداع من إيمانهم الديني، ولغاية تبدو في عظمة دينهم، يستباح الفداء فيها، والهلاك من أجلها، فطلبوا المعارف ونالوها، وجمعوا بين أطرافها وهضموها، وصنفوها، وتحكموا فيها، فتطورت على أيديهم، وتواصلت وتقابست، وتأصّل ما بينها وبين دينهم، فانطبعت بشخصيتهم، وتأثرت بأوضاعهم الفكرية الأساسية، التي هي أوضاع الفكرة الدينية التي أنشأ الإسلام عليها أفكارهم، والسكينة الإيمانية، التي رتبت دعوة الإسلام عليها نفوسهم.

هذه الحضارة هي التي ولدت ما ازدهر به التاريخ الإسلامي من المعارف، والآداب، والصنائع، والفنون، فكان المسلم الذي هو منشئ تلك الآثار الباهرة من الحضارة، سيدها ومعمرها بإيمانه القوي، وروحه المتقدة، وفكره المتوثب، وخلقه الطاهر، وسلوكه الأمين.

فلما تحولت به الحال، عن تلك المعاني السامية، بقيت مظاهر الحضارة ومعالمها، ونشأت بعدها مظاهر ومعالم أخرى، ولكن المسلم لم يبق سيدها ومعمرها، وإن كانت تنشأ في أرضه، بيده وعن معرفته، لأنه أصبح أسيرها، وعامل فسادها وخرابها، لما فقد ما كان عنده من قوة

في الإيمان، والروح، والفكر، والخلق، والسلوك» (انظر روح الحضارة الإسلامية للشيخ محمد الفاضل بن عاشور).

ومن القضايا الأساس التي قد يكون من المفيد التوقف عندها والإشارة إليها، أن الحضارة الإسلامية لم تعرف الثنائيات الكثيرة، التي سقط المسلمون فيها في فترات التخلف والاستلاب الحضاري، ولم يكن التدين في يوم ما من فترة القدوة وفترات التألق والإنجاز انسحاباً من صنع الحياة، وانكفاءً عن شؤون الدنيا، وانغلاقاً حول الذات، وإنما كان التدين يعني العبودية لله، وتخليص الناس من التأله والظلم، وإقامة العمران، وتحقيق المعارف، وإبداع الصناعات، وإتقان العمل، وبناء الحياة وفق منهج الله تعالى.

لقد كان الإنتاج في حضارة الإسلام عبادة، والإتقان فريضة، شكراً لله ﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ ﴾ (سبأ:١٣)، «**إن الله يحب إذا عمل أحدُكم عملاً أن يتقنه**» (أخرجه أبو يعلى عن عائشة)، ولعلنا نرى في قول الرسول ﷺ: «**إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ**» (أخرجه الإمام أحمد) ما يشير إلى نسق الحضارة الإسلامية وتميزها ووجهتها وكيف أنها اعتبرت أن أرقى مجالات التدين إنما هو في تحقيق النفع العام واستنفاد الجهد للقيام بالإنتاج وبناء إنسان الواجب، ففي هذا الحديث: نلمح كيف أن قيام الساعة أصبح واقعاً يقيناً، والزمن الباقي قليل قليل لا يمهل، والإنسان في هذه الحال قد

يكون أحوج ما يكون إلى استدراك أمره في التوبة والمغفرة والدعاء، فتجيئ وصية الرسول ﷺ للمسلم أن يتابع الإنتاج إلى آخر لحظات حياته، ويستخدم بقايا طاقته، حيث التوجه صوب الإنتاج في هذا الموقف الحرج اُعتبر عملاً مطلوباً شرعاً.

حتى لقد اتفق العلماء على أن تحصيل العلوم في الحضارة الإسلامية في شعب المعرفة جميعاً من فروض الكفايات، فجاءت حضارة الإسلام بفكرة التوازن بين متطلبات الحياة، والتوازي بين شؤون الحياة وضبط النسب في تسخيرها والتعاطي معها، فقدمت من العلوم والفنون، وطورت من الصناعات، وأبدع المسلمون في ظلها في مجال الرياضيات والهندسة والفلك والطب والفيزياء والكيمياء، ووضعوا أصول بعض العلوم، وطوروا أصولها الأخرى، التي كانت موجودة، وكان ذلك إلى جانب النبوغ في علوم الدين من الفقه والأصول والحديث والتفسير.

فلم تعرف الحضارة الإسلامية هذا الانشطار، الذي يعاني منه إنسان الحضارات الأخرى.

ولعل من أهم العوامل التي ساهمت في بقائها واستمرارها، على الرغم من الوهن الحضاري والتخلف الذي يمر به المسلمون، أنها حضارة التوحيد وإيقاف التأله والتسلط، حضارة الرحمة والعدل والمساواة؛ إنها حضارة مفتوحة للناس جميعاً، فهي إنسانية لا تختص بقومٍ أو عرقٍ أو لون أو جنس، وأنها تاريخية تمثل تاريخ النبوات من جانب والمشترك الإنساني من جانب آخر، فكل العروق

والأجناس والألوان شاركت بصناعتها؛ لذلك جاء عطاؤها إنسانياً كثمرة لقيمها، فهي حضارة إنسانية، حضارة الإنسان، يصعب نسبتها إلى شعب أو لون أو قوم، وإنما نسبها كان دائماً وأبداً للإنسان.

ولعل من أهم مقومات استمرارها وبقائها وجود القيم، قيم الوحي، التي تشكل ضابطاً ومعياراً لمسيرتها، وأن هذه القيم ليست من وضع الإنسان ليعبث بها، ويراوغ في تقويمها، وإنما هي قيم خالدة متأتية من خالق الإنسان، العالِم بتكوينه، لذلك فهي مؤهلة للإنتاج والنهوض في كل زمان ومكان وإنسان، وتشتد الحاجة إليها اليوم أكثر فأكثر للخروج من أسر الظلم والهيمنة والتسلط والاستكبار الحضاري، الذي يمارس على الإنسان.

إن قيم الحضارة الإسلامية، معاييرها (عالم أفكارها)، خالدة ومحفوظة، حيث تعهد الله بحفظها، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر:٩)، كما أن التجربة التطبيقية والبيان العملي (الإنجاز الحضاري لهذه القيم - السنة وفترة السيرة) محفوظة، حيث خضعت لأدق مناهج النقل والحفظ، هذا إضافة إلى ما تمتلكه الأمة من التجربة التاريخية الحضارية التي مرت بها الحضارة الإسلامية بما يسمى تجربة «الدورات الحضارية» جميعاً، في الوهن والنهوض من جديد، الأمر الذي يؤهل الأمة لاستئناف رسالتها في كل حين والانطلاق من الواقع الذي هي عليه، الأمر الذي تفتقر له سائر الحضارات إلى جانب ما تميزت به الحضارة الإسلامية من خصائص ذاتية.

وبعد:

فلعل هذا الكتاب، الذي نقدمه، يحاول التأصيل لبعض السمات الحضارية، ويقدم الشواهد على دور الحضارة الإسلامية الإنساني وعطائها المعرفي، ودورها في تطوير العلوم والمعارف، وتخليصها للإنسان من الثنائيات العقيمة التي وضعتها الفلسفات وأدت إلى تشطيره.

ذلك أن حضارة التوحيد تتميز تاريخياً بتخليص الإنسان من الظلم والتأله والاستكبار والعبودية لغير الله، وإشاعة قيم الحرية والعدل والمساواة وحقوق الإنسان واحترام إنسانية الإنسان، حيث مقصدها الأساس إخراج الناس من عبادة العباد.

إضافة إلى ما تتميز به الحضارة الإسلامية من قيم ومعايير خالدة ومثمرة متأتية من الوحي وخارجة عن وضع الإنسان، الأمر الذي يحمي مسيرتها، ويضمن لها الخلود والبقاء والقدرة على علاج الوهن الحضاري، الذي يلحق بالأمة في فترات السقوط، ويؤهلها إلى معاودة النهوض.

والكلام الذي نقدمه عن الحضارة الإسلامية ليس للمساهمة بالفخر السلبي الذي يكرس العجز والتخاذل، وإنما ليكون محرضاً حضارياً لعله يدفع أجيال الأمة للتفتيش عن مواطن الخلل والإصابة في سعيها لمعاودة الإقلاع من جديد، لإلحاق الرحمة بالعالمين.

ولله الأمر من قبل ومن بعد.

مقدّمة

الحمد لله القائل على لسان نبيه إبراهيم، عليه السلام: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام:١٦٢-١٦٣)، معلناً بذلك عن مجموعة من القيم العليا، التي تخبر المسلمين بأسمى جذور حضارتهم البانية، وترسم لهم طريق الخير والفضيلة وتنمي فيهم روح العمل والتكافل والإخاء، وتضيء لهم درب السعادة في الدنيا والآخرة.

إن حديثنا عن الحضارة الإسلامية هو حديث عن القيم الإنسانية الكبرى، التي تحمل في دلالتها معاني الخير المادي والمعنوي كلها، بدءاً من صنع حضارة النفس المطمئنة بعقيدة التوحيد والإسلام وانتهاءً بالتسليم الكامل لله عز وجل في المحيا والممات، بناء نفسياً وعقدياً وعمرانياً.

وإذا أردنا أن نوجز تعريفاً اصطلاحياً لمفهوم الحضارة الإسلامية نقول: هي «كل فعل إنساني لا يتجاوز حدود أمة الوسط» مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة:١٤٣)، علماً بأن كلمة حضارة هي استعمال محدث وإطلاق جديد، توسع استعماله تبعاً للحضارة المادية، التي انبنت أسسها على التقدم العلمي والتقني والتطور الصناعي ومجالات الاقتصاد العالمية المرتكزة على مبادئ العولمة. وأطلق هذا الاستعمال بعد ذلك على مجالات التقدم والرفاه الإنساني كلها، سواء في المجال الديني أو الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي.

وعلى ذلك ارتكزت أقلام المفكرين الإسلاميين وكتاب قضايا الفكر والثقافة الإسلامية، الذين ألفوا في أسس ومرتكزات الحضارة الإسلامية ووقفوا على أهم منجزات التاريخ الإسلامي، التي تأسست على يد رواد حركتها وبناها[1].

إن صلة الحضارة بالمفهوم الإسلامي يجعلها تتميز عن الحضارات الأخرى بخصائص وميزات تتجلى في انفتاح حدودها النفسية والفكرية وخيرها العام على العالمين، وفي ارتباط الثقافة الإسلامية ارتباطاً وثيقاً بالاعتقاد وإخلاص العبودية لله، سواء فيما يتعلق بالتنمية الاقتصادية أو التنمية البشرية مادة وروحا، وخلقاً وسلوكاً.

إنه النور المشرق على سماء الدنيا، الذي جعل الصلة وثيقة بين السماء والأرض، ووحد بين الروح والمادة، وجعل خلاص الإنسان وراحته في تسليم أمره لله، إنه الإسلام الذي ربط الحرية والمساواة في شرع الله بعقيدة الإيمان بالله، وأقام التوازن بين الحق والواجب، وبين حق الفرد وحق الجماعة، فنطق بذلك ميزان العدالة الإلهية: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾، وهو تحديد قيم وشامل وعميق.

---

(١) للإطلاع على تعريفات بعض هؤلاء الرواد انظر: يوسف الحوراني، الإنسان والحضارة (بيروت: المكتبة العصرية)؛ محمد محمد حسين، الإسلام والحضارة العربية (بيروت: المكتب الإسلامي)؛ أبو الأعلى المودودي، الحضارة الإسلامية، (ط الطباعة العربية)؛ مالك ابن نبي، شروط النهضة (دمشق: دار الفكر)؛ توفيق يوسف الواعي، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، ط١ (القاهرة: دار الوفاء، ١٩٨٨م).

إن اختيارنا لهذا الموضوع ينبع من قناعات خاصة مفادها أن المستقبل لهذا الدين، ومهما سالت أقلام الغيورين على موضوع البناء الحضاري للإسلام، فلن نوفيه حقه، دراسة وتحليلاً، ولن نستفرغ مكنون همومنا نحو عدالة وأحقية هذا الدين، الذي به تحيا قلوب الملايين من المسلمين في زمن كثر فيه الإحباط النفسي، والملل من الضوضاء والتيه بعيداً عن الحقيقة المشرقة، التي تنطق بها آيات القرآن الكريم كل يوم، وتقرع آذاناً كثيرة وقلوباً عديدة، تخاطبهم بأن النصرة والتمكين لدين الإسلام الذي حملت لواءه وجذوره أول رسالة في الأرض لـمّا خلق الله آدم، عليه السلام، واستخلفه واستعمره في الأرض وأرشده بالوحي والعلم. ثم أرسل سبحانه من بعده نوحاً، عليه السلام، وإبراهيم، عليه السلام، إلى أن أرسل لبنة التمام محمداً ﷺ خاتم الأنبياء والرسل.

لأجل ذلك حاولت في هذا العمل المتواضع أن أرصد جذور الحضارة الإسلامية، وأبحث عن قدم رسوخها في رسالة الأنبياء والرسل، تذكيراً بأن الدين عند الله الإسلام، عند جميع الأنبياء، عقيدة واحدة وإلهاً واحداً ومعبوداً لا ثاني له، نطق بالحق ومكن النصرة لأهل الحق.

فحاولت استخلاص العبر من خلال وقفات رسالية لبعض الأنبياء والرسل، وتفصيل القول في مقومات الحضارة الإسلامية، التي تجلت في عقيدة التوحيد والعلم والانفتاح على الحضارات الأخرى، وكان هذا موضوع الفصل الأول.. أما الفصل الثاني فخصصته للحديث عن جذور الحضارة الإسلامية وبعض روّادها: نوح، عليه السلام، وإبراهيم، عليه السلام.. وفي الفصل الثالث تحدثت عن الرسالة الخاتمة رسالة محمد ﷺ وبينت فيه خصائص عالمية هذه الرسالة الخالدة، وبعض تجليات يسرها وسماحتها، وركزت فيه على

الامتدادات الحضارية للإسلام في تجلياتها، مشددة على التحول المهم الـــذي جاءت به الرسالة المحمدية في إقامة العدل والحرية والنماء.

وكانت غايتي من ذلك إبراز بعض معالم الحضارة الإسلامية انطلاقاً من جـــذورها ومنابعها الصـــافية، السامية، بطريقة آمل أن تضيف شيئاً إلى ما كتبه رواد الفكر الإسلامي والحضارة في الموضوع، من خلال تلمس نـــبض حركتها في تاريخ الرسالات النبوية واستنباط ملامحها من منجزاتها السامية، وجعلها مؤلفاً مختصراً أرجو أن يفيد الطالب والباحث وكل من له اهتمـــام بقضايا الحضارة الإسلامية وقيمها السامية.

أسأل الله تعالى أن تكون هذه بداية لمزيد من البحث في هذا الموضوع الغني والثري بالمعاني السامية والتاريخ المجيد للحضارة الإسلامية، بالعودة إلى المنـــابع والوقوف عند الأصول، وبيان الامتدادات الكامنة في هذه الحضارة الـــضاربة في القدم والسائرة عبر التاريخ. وقد كان القصد من ذلك تعريف القارئ بجذورها وامتداداتها العريقة، أملاً في أخذ العبرة من معالمها وإنجازاتها العظيمة، لتجديـــد وبناء مسار حضارة إسلامية معاصرة تعيد الأمل وتفتح أبواب التقدم والنمـــاء بعيداً عن أي استلاب، بل باعتماد الاجتهاد والتجديد وإعمال النظر وفق تعاليم وروح الإسلام الحضارية التي شهد الجميع بسموها، قديماً وحديثاً.

كم نحن اليوم في حاجة ماسة إلى كتابات تؤكد من جهة إمكانية بعث هذه الحضارة ونمائها بعيداً عن كل تجريح أو تزييف، وتثبت من جهة أخرى أن المستقبل لهذا الدين رغم كيد الكائدين وحقد الحاقدين، ولن نبلغ هـــذه الغاية إلا من خلال تأصيل تعاليمه وفقه مقاصده والنهل من ينابيعه الصافية، فهماً وتفسيراً وضبطاً وتطبيقاً، أملاً في تحقيق نماء حضاري ينفع الناس جميعاً و يمكث في الأرض، بإذن الله تعالى وقوته.

الفصل الأول

من مقومات الحضارة الإسلامية

إن رسوخ الحضارة الإسلامية وعمق ثبوتها يتمثل في ارتكازها وقيامها على رصيد غير متناه من القيم والمبادئ المثلى، التي جسدها الإنسان الصالح في عمارته للأرض، هذا الإنسان الذي حقق بهذه القيم صورة مشرقة من الإبداع النافع، الذي ضمن الحياة والبقاء في الأرض، حيث إن القصد من التصور الإسلامي وغايته الكبرى هي الإنسان، وعمارته الأرض واستخلافه فيها، وعلاقته بالمسخَّرات الكونية والبشرية.

وقد تمحور التصور حول مرتكز الوحدة الإنسانية، التي استمدت تماسكها من خلال العقيدة الواحدة، عن طريق العلم، الذي هو سبيل المعرفة الإلهية، منفتحاً على حدود العلاقات الإنسانية السامية.

وهكذا، فمن خلال رؤية واضحة وهدف محدد نمت حضارة إنسانية قائمة على التوحيد والبناء.

المبحث الأول

حضارة التوحيد

إن عقيدة التوحيد، التي دان بها المسلمون منذ قيام الحياة على الأرض، أحد الأسباب الرئيسة في قيام الحضارة الإسلامية، التي هي بالدرجة الأولى إنسانية النـــزعة قبل أن تكون إسلامية العقيدة.

وعقيدة التوحيد هي عقيدة التسليم لله الواحد الأحـــد الفرد الصمد، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام:١٦٢-١٦٣).

والعقيدة الصحيحة تبعث في نفوس أصحابها «التصور الحقيقي لقـــيم الأشياء، فلا ينطلي عليها غبش الدعايات وهرج الشبهات، فإن من يعرف ربه يعرف قيمة نفسه، ويعرف قيمة إيمانه، ويعلم تسخير العوالم له، ويعلم كذلك أن الناس كلهم عبيد الله، وكلهم من خيره يرزقون»[١].

- العقيدة الصحيحة وطمأنينة القلب:

تبعث العقيدة الصحيحة في نفوس أصحابها طمأنينة القلب وصدق الهداية وراحة البال، قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (التغابن: ١١)، فالاعتقاد في الله يكسب الإنسان الثقة بربه والرجاء فيه وتـــسليم العبودية له، لأن الإيمان نور وفرقان يهدي قلب المؤمن إلى الحقيقـــة ويكـــسبه

---

(١) توفيق يوسف الواعي، الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، ص ٢١٣.

فراسة اليقين والرضا بالمقدور، وصدق رسول الله ﷺ وهو يعلم أصحابه كيفية الاعتقاد الصحيح: «**احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ**»[1].

وتتضح هذه الحقيقة حينما نلاحظ «أن مفهوم الإيمان يتضمن العلم اليقيني والاعتقاد الراسخ المقرون بالإقرار والإذعان، وأن الإيمان يجب أن يتناول كل جزء من أجزاء ما يجب الإيمان به، مما هو ثابت بيقين، فمن تردد أو شك ببعض أو ثبت منها بيقين، أو اكتفى باعتقاد أنه الأصوب والأرجح لم يصح إيمانه، ولن تسلم عقيدته، وبهذا نلاحظ أن الإيمان وحدة لا تتجزأ، ولا تقبل التجزئة، فمن آمن ببعض أركان الإيمان وكفر ببعضها لم يكن مؤمناً، إذ الجزء الذي كفر به يعود أثره على الجزء الذي آمن به فينقضه»[2].

- قواعد العقيدة في الإيمان:

وقد تحدث الإمام الغزالي، رحمه الله، عن قواعد العقائد في الإيمان والإسلام، وما بينهما من الاتصال، في مباحث تفيد العاقل في معرفة طريق الحق.. وجعلها درجات، وتحدث عن مقام كل درجة والحكم الشرعي المخصوص بهذه الدرجات، وختم ذلك بقوله:

---

(١) أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، الحضارة الإسلامية، ط١ (دمشق: دار العلم، ١٩٩٨م) ص ١٤٩.

«اشتهر عن السلف قولهم: الإيمان عقد وقول وعمل، فما معناه؟ قلنا: لا يبعد أن يعد العمل من الإيمان لأنه مكمل له ومتمم، كما يقال الرأس واليدان من الإنسان، ومعلوم أنه يخرج عن كونه إنساناً بعدم الرأس، ولا يخرج عنه بكونه مقطوع اليد، وكذلك يقال التسبيحات والتكبيرات من الصلاة، وإن كانت لا تبطل بفقدها، فالتصديق بالقلب من الإيمان كالرأس من وجود الإنسان إذ ينعدم بعدمه، وبقية الطاعات كالأطراف بعضها أعلى من بعض، وقد قال ﷺ: «لا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ»[1]، فإن قلت: فقد اتفق السلف على أن الإيمان يزيد وينقص، فأقول: السلف هم الشهود العدول، وما لأحد عن قولهم عدول، فما ذكروه حق وإنما الشأن في فهمه»[2].

إن صحة عقيدة الإسلام تبعث في قلوب المؤمنين أنواراً ومدارج عليا من الفضيلة والتقوى، تكسبهم قوة ومنعة تجاه كل تيار فاسد يتنافى والقيم المثلى، التي تحقق كل خير للبشرية جمعاء. لذلك فالعقيدة أسٌ ومقوم رفيع باعث على ثبوت وقيام الحضارة الإسلامية على مر العصور والدهور، فصفقة المؤمن المربحة هي الإيمان بالله واليوم الآخر وإحقاق الحق وإزهاق الباطل، ومنه قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ (المجادلة:٢٢)، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ (المائدة:٨١).

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة.

(٢) إحياء علوم الدين (بيروت: دار الكتب العلمية) ١/١٤٢.

لقد بيَّن سبحانه أن الإيمان له لوازمه، وله أضداد موجودة تستلزم ثبوت لوازمه وانتفاء أضداده، ومن أضداده موادَّة من حاد الله ورسوله[1]، ومن هذا الباب قوله ﷺ: «وَاللَّه لا يُؤْمِنُ، وَاللَّه لا يُؤْمِنُ، وَاللَّه لا يُؤْمِنُ.. قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّه؟ قَالَ: الَّذِي لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَايِقَهُ»[2]، وقوله: «لا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا»[3]، وقوله: « لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْه مِنْ وَلَده وَوَالده وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[4]، وقوله: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيه مَا يُحِبُّ لنَفْسه»[5].

ومن خلال هذه الآيات والأحاديث النبوية الشريفة يتبين أن توحيد العبودية لله وإخلاص الألوهية له يخرج أجيالاً من دعاة الخير وبناة الصلاح في الأرض، الذين استطاعوا ومنذ فجر الإسلام أن يبنوا حضارة إسلامية قوامها عقيدة صحيحة، أكسبت الإنسان إرادة قوية في بناء الخير وإسعاد البشرية في شتى المجالات العمرانية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية؛ لأن الإنسان البنَّاء لفعل الخيرات يؤمن إيماناً مطلقاً أن ذلك سيحقق له عند الله خيراً وسعادة خالدة وثواباً حسناً، يقول تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ (النحل:٩٧)، ويقول:

---

(١) انظر تفصيله عند ابن تيمية في الإيمان، ط٣ (بيروت المكتب الإسلامي، ١٤٠١هـ) ص ١٥٣؛ وفي فتاواه، ١٦٣/١٥.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح.

(٣) أخرجه مسلم في الصحيح.

(٤) أخرجه مسلم.

(٥) أخرجه البخاري.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ (الزلزلة:٧-٨)، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩﴾ (الحج:٧٧).

لذلك ففعل الخيرات ونشر معانيها بين الناس هو الأمر المطلوب في أسس الحضارة الإسلامية كما هو مقرر في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ (النساء:٦٦).

والمقصود بـ ﴿مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ كل أسباب بناء العمارة والاستخلاف على الوجه الحق، الذي جاءت موجهاته وتوجيهاته وأنواره مبينة ومفصلة في الكتاب العزيز والسنة النبوية المطهرة.. غير أنه «كثيراً ما يخفى على الناس ما في الأعمال الإنسانية من نتائج خير أو شر، فتختلف أنظارهم فيها، وتختلف أحكامهم بالنسبة إليها، إلا أن الشريعة الإسلامية لما كانت منزلة من لدن حكيم عليم بما كان وما هو كائن وما سيكون، وعليم بخصائص الأنفس وبما يصلح الناس، وبما يفسدهم، وبما يكون لهم أنفع وأصلح وأكمل، كانت أحكامها مطابقة لما عليه أحوال هذا القسم مطابقة تامة في كل مسألة من مسائله وكل جزئية من جزئياته»[1].

وقد بينت السنة النبوية المطهرة وأوضحت للناس الحدود الفاصلة بين الخير والشر، يقول ﷺ: «**الْحَلالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ**

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة، الحضارة الإسلامية ، ص ٦٥.

لا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ»[1].

نخلص إلى القول: إن محور العقيدة هو منطلق الحرية الإنسانية في التصديق بالذات الإلهية وإخلاص الربوبية والألوهية لها؛ حرية في التصور وفي الاعتقاد وفي العمل، تخلق تنافساً وسعياً في الأرض بكل اطمئنان، وتجعل من الإنسان خلقاً منتجاً ومبدعاً، يسعى إلى إرضاء مولاه وخالقه بكل ما أوتي من وسائل الفضيلة والتقوى، متخلصاً من أدران الوثنية المادية والمعنوية، خوفه من الله وإلى الله.

فالتوحيد هو غاية الخلافة والعمارة والعبادة في الأرض.. وفي الخلافة والعمارة والعبادة توازن بين المادة والروح، قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (القصص:٧٧).

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان.

المبحث الثاني

حضارة العلم

إن بلوغ الأهداف والمرام رهن برسم طريق الحياة وفق منهاج سليم وغايات نبيلة، ولا يتم ذلك إلا بحدود معينة من العلم والمعرفة. ومصطلحا «العلم» و«المعرفة» شاملان وواسعان لا يحدهما زمان ولا مكان ولا عبارات؛ لأن تعريفهما ليس مخصوصاً بكتب اللغة أو كتب الفلسفة أو كتب علم النفس أو الاجتماع، وحتى إذا وقفت على أحد التعريفات لمصطلح «علم» فلن يعرفك صاحبه إلا بجانب من جوانبه، أي بنوع معين من أنواع العلوم، فلا يستوفيها جميعاً.

لكن تبقى صفة «العلم» المطلقة لله عز وجل؛ لأنها صفة من صفاته واسم من أسمائه، فهو العليم كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ (الحجر:٨٦)، والعالم كما في قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ (الحشر:٢٢) والعلاّم كما في قوله تعالى: ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ (المائدة:١٠٩)، والمعلّم كما في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة:٣١).

ويعرف «الجرجاني» العلم: بأنه «الاعتقاد الجازم المطابق للواقع»[1]، وفي قول الحكماء: هو حصول صورة الشيء في العقل، وهو زوال الخفاء من المعلوم؛ والجهل نقيضه.

---

(١) أبو الحسن الجرجاني، التعريفات، تحقيق عبد الرحمن عميرة، طبعة القاهرة، ص ٢٠٠.

والعلم بمفهومه الواسع هو حصول الملكة والمعرفة، قال أبو البقاء: «كل معرفة وعلم فإما تصور وإما تصديق فوحدة المحمول تدل على الترادف»[1].

- الإسلام دين العلم:

إن إسناد مهمة الخلافة للإنسان في الأرض هو من الشرف والتكريم العظيم، الذي ناله الإنسان من لدن رب العزة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة: ٣٠)، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ (الأنعام: ١٦٥)، ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (ص: ٢٦).

إنها نيابة عظيمة ومهمة خطيرة تحملها الإنسان لكي يكون خليفة الله في أرضه، يعمرها إعماراً مادياً ومعنوياً، ووهبه ربه الأسباب والمؤهلات اللازمة لتحقيق هذه المهمة، من العلم والعقل والسمع والبصر والحس والإرادة والحرية.

ثم إن الحياة البشرية في الأرض إنما قامت على أساسٍ من العلم والمعرفة، فقد مكن الله سبحانه وتعالى آدم، عليه السلام، أبا البشر، من معرفة أسماء كل شيء، وهيأ له مناخ العيش والتأقلم مع جو الأرض حتى يكون إنساناً نافعاً، وأمده بالأساليب الحضارية لتحقيق هذه الخلافة، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة: ٣١)، وفي تفسير هذه الآية يقول ابن كثير،

---

(١) أبو البقاء، أيوب بن موسى، الكليات، مؤسسة الرسالة، ص ٦١١.

رحمه الله: «والصحيح أنه علمه أسماء الذوات وأفعالها، مكبرها ومصغرها، كما أشار إليه ابن عباس، رضي الله عنهما»[1].

ويتأكد علم آدم، عليه السلام، من لدن العلم اللدني حيث خاطبه ربه قائلاً: ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾ (البقرة:٣٣)، ويتجلى ذلك في الرسالات النبوية كلها، قد انبنت على العلم، وتأسست دعوة الرسل جميعهم على المعرفة بأسباب الأمور ومقاصدها.

وبالعلم افتتحت خاتمة الرسالات النبوية، حينما نزل جبريل، عليه السلام، مخاطباً أصفى الخلق محمد ﷺ بدعوته إلى العلم، يقول تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾، ويقول تعالى في معرض وصفه للكتاب بالعلم: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ ﴾ (الأعراف:٥٢)، ويقول: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ ﴾ (الأعراف:٧)، ﴿ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ ﴾ (العنكبوت:٤٩).

كما لقد وردت أحاديث وأخبار تؤكد دعوة الإسلام إلى العلم والتعلم، وترشد إلى فضله وفضيلته، يقول الرسول ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»[2]، وفي رواية أخرى: «**ويلهمه**

---

(١) تفسير القرآن العظيم (بيروت: دار الفكر، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م) ١/٧٦.

(٢) أخرجه البخاري.

رشده»[1]، وقال ﷺ: «**إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ**»[2]، و«معلوم أنه لا رتبة فوق النبوة ولا شرف فوق الوراثة لتلك الرتبة»[3].

وقال ﷺ: «**خَصْلَتَانِ لا تَجْتَمِعَانِ فِي مُنَافِقٍ: حُسْنُ سَمْتٍ وَلا فِقْهٌ فِي الدِّينِ**»[4]. وعلق أبو حامد الغزالي على هذا الحديث قائلاً: «ولا تشكن في الحديث لنفاق بعض فقهاء الزمان، فإنه ما أراد به الفقه الذي ظننته. وأدنى درجات الفقيه أن يعلم أن الآخرة خير من الدنيا، وهذه المعرفة إذا صدقت وغلبت عليه برئ بها من النفاق والرياء»[5].

وقال ﷺ: «**النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلامِ إِذَا فَقُهُوا**»[6]، وقال ﷺ: «**فَقِيهٌ وَاحِدٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ**»[7].

وسئل رسول الله ﷺ: «أي الأعمال أفضل؟ فقال: **العلم بالله عز وجل**. فقيل: أي العمل تريد؟ قال ﷺ: **العلم بالله سبحانه**. فقيل له:

---

(١) أخرجه بهذه الزيادة الطبراني في الكبير.

(٢) أخرجه الترمذي.

(٣) إحياء علوم الدين، ١/١٦.

(٤) أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة.

(٥) إحياء علوم الدين، ١/١٦.

(٦) أخرجه مسلم.

(٧) أخرجه ابن ماجه.

نسأل عن العمل وتجيب عن العلم! فقال ﷺ: **إن قليل العمل ينفع مع العلم بالله، وإن كثير العمل لا ينفع مع الجهل بالله»**[1].

نستشعر من خلال هذه الآثار فضيلة العلم ومكانة العلماء بين سائر الناس، وكيف أن الرسول ﷺ جعل رتبتهم بعد رتبة الأنبياء؛ لأن العلم هو روح الحضارات وروح الحياة، ولا معنى لعمل بدون علم. وفي هذا الصدد قال علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، ناظماً:

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم	على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه	والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعش حياً به أبداً	الناس موتى وأهل العلم أحياء[2]

لذلك نجد أن الصحابة، رضوان الله عليهم، دأبوا على تحمل أمانة الدين ورسالة العلم، فحفظوا القرآن الكريم وبينوه، وحفظوا السنة النبوية وبلغوا معانيها علماً وعملاً للناس، ومن بعدهم التابعون الذين اشتغلوا في الحديث النبوي الشريف.

كَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى أَبِي بَكْرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ حَزْمٍ أَن: «اكْتُبْ إِلَيَّ بِمَا ثَبَتَ عِنْدَكَ مِنَ الْحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبِحَدِيثِ عَمْرَةَ، فَإِنِّي قَدْ خَشِيتُ دُرُوسَ الْعِلْمِ وَذَهَابَه»[3].

---

(١) أخرجه ابن عبد البر.

(٢) إحياء علوم الدين، ١/١٨.

(٣) أخرجه الدارمي في سننه، كتاب المقدمة.

وكَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ أيضاً إِلَى أَهْلِ الْمَدِينَة أن «انْظُرُوا حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاكْتُبُوهُ، فَإِنِّي قَدْ خِفْتُ دُرُوسَ الْعِلْمِ وَذَهَابَ أَهْلِه»[1].

لقد نشطت الحركة العلمية في حياة الصحابة والتابعين، وجدّوا في طلب العلم، ورحلوا المسافات البعيدة طلباً للحديث الواحد قصد سماعه من راو ثقة وإن كان محفوظاً من طريق واحد أو من طريق طالت فيه سلسلة الرواة[2].

واعتمدوا في جمع حديث رسول الله ﷺ وتصنيفه منهجاً علمياً دقيقاً تحروا فيه الضبط والعدالة في الراوي وأهليته لتحمل العلم وأدائه، وهو منهج عرف بعلم الجرح والتعديل.

وظهرت بعد ذلك المصنفات في علم الحديث النبوي الشريف، وأصبحت تتدارسها الأجيال بعد الأجيال، واعتمدت مصدراً رئيساً في هذا العلم الراقي، الذي صدر عن نبي مرسل لا ينطق عن الهوى. نذكر منها الجامع الصحيح للإمام أبي عبد الله البخاري، المتوفى سنة ٢٥٦ هـ؛ ثم كتاب صحيح مسلم للإمام أبي الحسن بن الحجاج بن مسلم القشيري، المتوفى سنة ٢٦١ هـ. ثم كتب السنن، كسنن أبي داود سليمان بن الأشعث الأزدي،

(١) أخرجه الدارمي، كتاب المقدمة.

(٢) انظر: ابن الصلاح، مقدمة في علوم الحديث، تحقيق نور الدين عتر (بيروت: المكتبة العلمية، ١٩٨١م)؛ الخطيب البغدادي، الكفاية في علم الرواية، ط١ (مصر: السعادة)؛ الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي، المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، تحقيق عجاج الخطيب، ط١ (السعودية: جامعة الإمام سعود).

المتوفى سنة ٢٧٥ هـ؛ وسنن النسائي الحافظ محمد بن عيسى بن سورة السلمي، المتوفى سنة ٢٧٩ هـ.

ومن آثار مدارسة القرآن الكريم والسنة النبوية ابتكار كثير من العلوم الإسلامية، التي تفنن العلماء المختصون في تصنيفها وتبويبها.

وصفوة القول: إن الإسلام دين العلم والحياة ومنبع الحضارات، فقد راعى مطالب الفكر والنفس والجسد في حدود طريق الخير والنفع العام لكل الإنسانية.

- العلم والتمكين الحضاري:

إن دعوة الإسلام إلى العلم «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ»[١]، كما قال ﷺ، هي في الحقيقة دعوة لإحياء القلوب والعقول، وتحريرها من قيد الجهل والجحود. فالعلم حرية وتحرر نحو السير في الأرض لأجل النظر والتفكر في ذات الله عز وجل: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ (فصلت:٥٣).

ولقد مكن الله سبحانه وتعالى الإنسان من أدوات العلم والمعرفة من سمع وبصر وفؤاد وعقل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ (الإسراء:٣٦)، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة.

﴿مِنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ (النحل:٧٨).

فأهله بذلك لما دعاه إليه من إعمال الفكر والنظر والتبصر «والاستفادة من كل نافع، وطلب كل مفيد، فانطلق المسلمون ينظرون في كل شيء، ويبحثون في كل فج، ويستفيدون بكل حديث وقديم، ينقبون عن كل علم، ويسيرون وراء كل حكمة، يأخذون العبرة من الماضي، وينطلقون للمستقبل، يستفيدون من القديم ويبنون الجديد، في الأخلاق وفي الفلسفة والطب والهندسة وسائر العلوم والمعارف الأخرى.

ولم يدخر المسلمون جهداً في البحث عن تراث الأمم السابقة في العلوم المختلفة، رغم صعوبة ذلك، لتقادم العهد بها، وعدم معرفة قدرها عند مقتنيها وإهمالها.

وكلما طالت الشقة في الزمان بين عصر المصنف وعصر الباحث زادت الصعوبة وتضاعف الجهد»[١].

واجتهد المسلمون في إطار حرصهم على كل مفيد في الإطلاع على ثقافات (الآخر) ونشر المفيد منها، حسب تقديرهم، رغم اختلاف اللغات وتعدد اللهجات، فجدّوا في طلبها عن طريق تعلم لغات القوم وترجمة مؤلفاتهم إلى اللغة العربية، فقاموا بمراجعة نقولها وتنقيحها وتصحيح ما فيها

(١) الواعي، الحضارة الإسلامية، ص ٣٨٩.

من تصحيف واستدراك ما فات أصحابها من علوم قيمة تأسست بفعلها حضارة مكنت أصحابها من النفوذ العلمي النافع في أرجاء مختلفة من أنحاء العالم.

والعلم لا يكون نافعاً إلا إذا استوعب حامله روحه وجسده، وفهم أن العلم الذي لا تنقضي حضارته ولا تندرس معالمه هو العلم الذي رسم شروطه وأساليبه الوحي في آيات القرآن الكريم وأكدته جوامع الكلم من السنة النبوية المطهرة.

«روي عن عبد القادر بن عبد العزيز أنه كان رجلاً صالحاً ورعاً وكان يسأل الشافعي، رضي الله عنه، عن مسائل في الورع والشافعي، رحمه الله، يقبل عليه لورعه، وقال للشافعي يوماً: أيها أفضل: الصبر أو المحنة أو التمكين؟ فقال الشافعي، رحمه الله: التمكين درجة الأنبياء، ولا يكون التمكين إلا بعد المحنة، فإذا امتحن صبر وإذا صبر مُكّن، ألا ترى أن الله عز وجل امتحن إبراهيم، عليه السلام، ثم مكنه؟ ثم امتحن موسى، عليه السلام، ثم مكنه؟ وامتحن أيوب، عليه السلام، ثم مكنه؟ وامتحن سليمان، عليه السلام، ثم مكنه وآتاه ملكاً.. والتمكين أفضل الدرجات، قال الله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ (يوسف:٥٦)، وأيوب عليه السلام بعد المحنة العظيمة مكّن، قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ (لأنبياء:٨٤).

فهذا الكلام من الشافعي، رحمه الله، يدل على تبحره في أسرار القرآن وإطلاعه على مقامات السائرين إلى الله تعالى من الأنبياء والأولياء، وكـل ذلك من علوم الآخرة.

وقيل للشافعي، رحمه الله: متى يكون الرجل عالماً؟ قال: إذا تحقـق في علم الدين فعلمه، وتعرض لسائر العلوم فنظر فيما فاته، فعند ذلك يكـون عالماً، فإنه قيل لجالينوس: إنك تأمر للداء الواحد بالأدوية الكثـيرة المجتمعة فقال: إنما المقصود منها واحد، وإنما يجعل معه غيره لتـسكن حدتـه، لأن الإفراد قاتل.. فهذا وأمثاله مما لا يحصى يدل على علو رتبته في معرفـة الله تعالى وعلوم الآخرة»[1].

إن السيادة والتمكين إنما يكون لأهـل الإيمـان والعلـم والتقـوى والورع. ولقد كان القضـاة والولاة في العصور الذهبية للإسـلام فقهـاء وأهل فتيا. ولا يتصدر هذه المهمة إلا من جمع بين الديانة والرواية، وكانوا أهلاً للقضاء بين الناس، فيحكم القاضي الورع بما أنزل الله، يتوسم الحكمة والعدل ونصر المظلومين ورد الحقوق إلى أصحابها.

ورد في تهذيب الكمال: «عن الوليد الموقرى عن الزهري - وكان مـن أوعية العلم ومن كبار التابعين - قال: «قدمت على عبد الملك بن مـروان، فقال: من أين قدمت يا زهري؟ قال: قلت: من مكة، قال: ومـن خلفـت يسودها وأهلها؟ قلت: عطاء بن أبي رباح، قال: فمن العرب أم من المـوالي؟

(١) إحياء علوم الدين، ٣٨/١.

قلت: من الموالي، قال: فبم سادهم: قال: قلت: بالديانة والرواية، قال: إن أهل الديانة والرواية لينبغي أن يسودوا. قال: فمن يسود أهل اليمن؟ قلت: طاوس بن كيسان، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي؟ قال: فبم سادهم؟ قلت: بما ساد به عطاء، قال: إنه لينبغي ذلك.. قال: فمن يسود أهل مصر؟ قلت: يزيد بن حبيب، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي، قال: فمن يسود أهل الشام؟ قلت: مكحول، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي، عبد نوبي أعتقته امرأة من هذيل، قال: فمن يسود أهل الجزيرة؟ قلت: ميمون بن مهران، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي. قال: فمن يسود أهل خراسان؟ قال: قلت: الضحاك بن مزاحم، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي . قال فمن يسود أهل البصرة؟ قال قلت: الحسن البصري، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي، قال: ويلك، ومن يسود أهل الكوفة؟ قال: قلت: إبراهيم النخعي، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من العرب، قال: ويلك يا زهري، فرجت عني، والله لتسودن الموالي على العرب في هذا البلد حتى يخطب لها على المنابر والعرب تحتها. قال: قلت: يا أمير المؤمنين، إنما هو دين، من حفظه ساد ومن ضيعه سقط»[1].

---

(١) انظره في تهذيب الكمال، نقلاً عن فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، عبد الرحمن عبد الوهاب النجدي، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط (الرباط: مكتبة المعارف، ١٤١٩هـ) ص٤٨٤.

أوردت النص بطوله لأدل به على أن السيادة آلت إلى أهل العلم من الفقهاء والعلماء الورعين، وهؤلاء جميعهم كانوا من أئمة التفسير، يفهمون مراد الله ومقاصده، اهتدى كثير من العلماء بهديهم، وكان كل واحد منهم مدرسة في التفسير والفقه، وأيضاً قدوة في الدين والخلق.

- العلم طريق إلى العمل:

لقد تحدثنا قبل قليل عن أسباب التمكين في الأرض، وذكرنا أن الرواية والديانة أحد هذه الأسباب، بل هي الأسباب كلها، لذلك قال سبحانه وتعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ (المجادلة: ١١).

فرسالة الإسلام انبنت على دعائم رئيسة أساسها العلم والإيمان، لذلك افتتحت رسالة محمد ﷺ بقوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ هي دعوة إلى العلم عن طريق المنهج اللدني والوحي الرباني.

وفي آيات أخرى اقترن الإيمان بالعمل الصالح، هذا الأخير الذي أنار نبراسه العلم النافع، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ (النور: ٥٥).

وفي هذا الصدد نستشهد بصورة حقيقية لانتصار الإيمان والعمل بالعلم على القوة والكثرة والجبروت، حيث شهد لنا التاريخ بالعديد من الإنجازات

الكبرى لمؤمنين خلص آمنوا بالحرية والعدل، ذلك «أن الـذي وقـف في معارك الإسلام الكبرى مؤمناً صابراً صامداً مناضلاً من أجل الحق والحريـة ورسالة السماء إنما هو المسلم الحقيقي، وهو ومن ماثلـه روعـوا هرقـل إمبراطور الرومان وفزعوه في حروبهم في الشام، فلما خرج منهما مهزومـاً مدحوراً ووصل إلى أنطاكية وأقبلت فلول جيوشه إليه محطمة ذليلة أمر بعقد مجلس حربي أعلى وصاح في كبار قواده:

ويلكم، أخبروني: هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم أليسوا بشراً مـثلكم؟ فردوا عليه: بلى، فقال لهم: فأنتم أكثر أم هم؟ قالوا: بل نحن أكثر منـهم أضعافاً في كل موطن. قال لهم الإمبراطور: فما بالكم تنهزمون؟ فـسكتوا، وأجابه قائد من كبار قواده قائلاً: «أيها الملك انتصروا وهزمنا من أجل أنهم يقومون بالليل، ويصومون بالنهار، ويوفون بالعهد، ويـأمرون بـالمعروف، وينهون عن المنكر، ويتناصفون بينهم، ومن أجل أنا نشرب الخمر، ونـزني، ونرتكب الحرام، وننقض العهد، ونضل، ونأمر بالسخط وننهى عما يرضي الله، ونفسد في الأرض»[1].

إن التاريخ الإسلامي مليء بالاستشهادات التي أنارت طريق العمـل بالعلم والإيمان، وأشرقت في ربوع أرجاء كثيرة نور الحضارة الإسـلامية، وانتصر الحق على الظلم والعدل على الجور.

---

(١) الإسلام وحضارة المستقبل، محمد عبد المنعم وآخرون (دار مصر للطباعة) ص ٤٠.

وشهد لهذا التألق الحضاري عند علماء المسلمين كثير من علماء أوربا، الذين قدروا هذه النتائج والانتصارات القوية في ترجمة النظريات الفكرية والعلمية إلى واقع العمل المؤسس لحياة الإنسان، وفي هذا الصدد يقول «ول ديورانت»، أحد رواد الفكر الغربي: «إن ابن سينا أعظم من كتب في الطب في العصور الوسطى، وإن الرازي أعظم أطبائها، والبيروني أعظم الجغرافيين فيها، وابن الهيثم أعظم علمائها في البصريات، وجابر بن حيان أعظم الكيميائيين فيها. تلك أسماء خمسة لا يعرف عنها العالم المسيحي في الوقت الحاضر إلا القليل. وأن عدم معرفتنا إياها ليشهد بضيق نظرتنا وتقصيرنا في معرفة تاريخ العصور الوسطى. إن العلوم العربية التي كانت وليدة الطريقة التجريبية العلمية هي أهم أدوات العقل الحديث وأعظم مفاخره، ولما أعلن «روجر بيكن» هذه الطريقة إلى أوروبا بعد أن أعلنها جابر بن حيان بخمسمائة عام، كان الذي هداه إليها هو النور الذي أضاء له السبيل من عرب الأندلس. وليس هذا النور نفسه إلا قبس من نور المسلمين في الشرق»[1].

وقال العالم الأوربي «ولز J.G.Wells»: «إن العقل العربي الإسلامي تأجج في تألق لا يفوقه فيه غيره، فأحيا من جديد بحث الإنسان وراء العلم، فمن العرب المسلمين وليس عن طريق اللاتين تلقى العالم العصري تلك المنحة من النور والقوة»[2].

---

(١) ول ديورانت، قصة الحضارة (بيروت: لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٣/١٩٦.

(٢) ولز H.G. Wells، معالم تاريخ الإنسانية، ط٣ (القاهرة: لجنة التأليف والنشر، ١٩٧٢م) ٣/٨٢٧.

والسبب الرئيس في ازدهار العلم لديهم «أنهم قابلوه بروح جديدة في البحث كانت هي السبب المهم في تطوره، ودفعوه دفعة قوية إلى الأمام، ولولا هذه الدفعة لما عاش، ولما اعترف به مؤرخو العلم في أوربا أدنى اعتراف، لقد كان بيدهم المنهج الاستقرائي الذي اكتشفوه أول عهدهم في دائرة الفكر الإسلامي... وهذا المحتوى الغني بالثقافة الإسلامية، وهذه الأبعاد الحضارية الممتدة للعلم الإسلامي في آفاقه الإنسانية، كل ذلك يقوم دليلاً على أن الثقافة الإسلامية تزدهر حيثما يتوفر المناخ الفكري والاجتماعي، وتتكامل الأسباب الداعية إلى النهوض.

لقد قدمت هذه الثقافة إلى التاريخ الإنساني من العلوم والمعارف والإضافات العميقة ما لا نظير له في تاريخ الثقافات على وجه الإطلاق. ولقد أقام الإسلام نهضته المبكرة على أساس العلم والمعرفة والثقافة في أبعادها المتنوعة. وكانت الثقافة الإسلامية غنية بالمضامين والدلالات التي تجعل منها ثقافة البناء الحضاري وثقافة الفعل الإنساني المؤثر في مسار تاريخ الشعوب والأمم التي احتكت بها وتفاعلت معها»[1].

إن العمل المستهدي بالعلم هو العمل الذي يشيد صرح الحضارة، ومن صفاته أن يكون جاداً متقناً، مخلصاً فيه: **«إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه»؛ «... مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا»**[2].

---

(١) انظر تفصيل هذا المنظور في عبد القادر الإدريسي، المستقبل يبدأ الآن، ط١ (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ٢٠٠٣م) ص ١٢٣ -١٢٥.

(٢) أخرجه مسلم.

والله عز وجل يثيب على العمل الصالح بمفهومه العام، يقول تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة:١٠٥)، ويقول: ﴿كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ (المؤمنون:٥١)، ويقول: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ (آل عمران:١٩٥).

وقد دلت الأحاديث النبوية على إثابة صاحب العمل الصالح، الذي يجمع في عمله بين العلم بمقاصد الشريعة والإخلاص في العمل، وفي حديث الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى الغار، وهو حديث مشهور[1] في الصحيحين وغيرهما، أنه لما انطبقت عليهم الصخرة قالوا: «**ادْعُوا اللَّهَ بِأَفْضَلِ عَمَلٍ عَمِلْتُمُوهُ.. فَقَالَ أَحَدُهُمُ: اللَّهُمَّ إِنِّي كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَرْعَى ثُمَّ أَجِيءُ فَأَحْلُبُ فَأَجِيءُ بِالْحِلَابِ فَآتِي بِهِ أَبَوَيَّ فَيَشْرَبَانِ ثُمَّ أَسْقِي الصِّبْيَةَ وَأَهْلِي وَامْرَأَتِي، فَاحْتَبَسْتُ لَيْلَةً فَجِئْتُ فَإِذَا هُمَا نَائِمَانِ.. قَالَ: فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُمَا، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ رِجْلَيَّ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمَا حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا فُرْجَةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ.. قَالَ: فَفُرِجَ عَنْهُمْ.. وَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أُحِبُّ امْرَأَةً مِنْ بَنَاتِ عَمِّي**

---

(١) ذكره ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق محمد حامد الفقي (الرباط: مكتبة المعارف، ١٤١٩هـ) ٤١٨/٤ .

كَأَشَدِّ مَا يُحبُّ الرَّجُلُ النِّسَاءَ، فَقَالَتْ: لا تَنَالُ ذَلِكَ مِنْهَا حَتَّى تُعْطِيَهَا مِائَةَ دِينَارٍ، فَسَعَيْتُ فِيهَا حَتَّى جَمَعْتُهَا، فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا قَالَت: اتَّقِ اللَّهَ، وَلا تَفُضَّ الْخَاتَمَ إلاَّ بحَقِّه، فَقُمْتُ وَتَرَكْتُهَا، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا فُرْجَةً.. قَالَ: فَفَرَجَ عَنْهُمُ الثُّلُثَيْنِ.. وَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقٍ مِنْ ذُرَةٍ فَأَعْطَيْتُهُ وَأَبَى ذَاكَ أَنْ يَأْخُذَ فَعَمَدْتُ إِلَى ذَلِكَ الْفَرَقِ فَزَرَعْتُهُ حَتَّى اشْتَرَيْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرَاعِيهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّه، أَعْطِنِي حَقِّي.. فَقُلْتُ: انْطَلِقْ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ وَرَاعِيهَا فَإِنَّهَا لَكَ، فَقَالَ: أَتَسْتَهْزِئُ بِي؟ قَالَ: فَقُلْتُ: مَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ وَلَكِنَّهَا لَكَ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا.. فَكُشِفَ عَنْهُمْ»[1].

ومن جهة أخرى ينبغي أن يدرك كل من يحمل رسالة الإسلام على عاتقه أن عمارة الأرض هي جزء من عبادة الله، وابتغاء الرزق جزء من عبادة الله، واستخدام الزينة الطيبة جزء من عبادة الله، وتذوق الجمال والبحث عنه في ملكوت الله جزء من عبادة الله، وتعلم الصنائع المختلفة جزء من عبادة الله[2]. والجمع بين العبادة والعمل خصلة حميدة يحدثنا عنها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي

(١) أخرجه البخاري، كتاب البيوع.
(٢) انظر دراسات قرآنية، محمد قطب (بيروت: دار الشروق، ١٩٨٢م) ص ١٢٠.

وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (الأنعام: ١٦١-١٦٣).

فمفهوم العبادة ليس فقط القيام بالشعائر التعبدية من صلاة وزكاة وصدقة وصيام وحج، بل هو كل حركة يتحركها الإنسان في حياته الدنيا، أي في كل محياه، لذلك فكل عمل يقوم به الإنسان وقلبه متوجه إلى الله، شاكر لأنعمه، فهو عبادة له.

وكل حركة في هذا الكون هي ابتغاء من فضل الله. وما اصطلح عليه بالعبادات هي في حقيقتها شعائر وعلامات ظاهرة متميزة ومميزة للفرد والجماعة، وهي في تعاليم الإسلام موقوفة محدودة تشير وتدل على عبادة شاملة وتقوى لله في كل زمان ومكان، وهي تريح النفس وتشفيها، وتصون الطاقة وتزكيها، وتقوي المؤمن على مواصلة الجهد والصبر على مشقة العمل وفتنة الظفر والفشل وإيذاء البشر وإغوائهم[١].

هكذا شهد المنصفون والعارفون والعلماء في سائر المعارف أن الفكر الإسلامي قام على «النظر والتفكير وإعلاء أمر العقل، ورفع شأنه، وعمل على إزالة العوائق من طريقه، حتى يلتقي مع الفطرة ويتصل بالوحي والحقيقة واليقين»[٢].

---

(١) انظر محمد فتحي عثمان، القيم الحضارية في رسالة الإسلام، ط ١ (الرياض: الدار السعودية للنشر والتوزيع، ١٩٨٢م) ص٧٣.
(٢) الواعي، الحضارة الإسلامية، ص ٣٨٢.

ولقد فسح القرآن الكريم المجال أمام الفكر البشري ليفهم قواعد الإسلام وأحكامه ومقاصده؛ لأنها أحكام تتطابق مع مقتضيات الفطرة البشرية ومع الإدراكات العقلية، لأجل ذلك تكرر لفظ العلم ومشتقاته في القرآن الكريم، وأكثرها تدعو إلى النظر وإعمال الفكر ودراسة مختلف العلوم الحضارية ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾؟

ومتى تعود الأمة إلى منابعها الأصيلة من القرآن والسنة، لتنزع عنها هذا الجهل المطبق وتسترشد بروح الإسلام وينابيعه الصافية في الدعوة إلى العلم الموصول بالعمل، لتؤكد أنها بالفعل تنتمي إلى حضارة الإسلام الخلاقة، حضارة الخير والنماء، بعيداً عن كل أنواع الخمول المستشري في عقول الأمة، شيبها وشبابها، ممن ضيعوا الرسالة الإسلامية واكتفوا بالتقليد لمظاهر خداعة كرست تبعيتهم لـ(لغير)، وعمقت جهلهم بأمور الدين والدنيا، فتعطلت مدارك العلم والعمل لديهم، فلم يعد هناك جد واجتهاد بل اجترار وتقليد أعمى.. إن مستقبل الأمة يتجلى في التخلص من هذه الأدران والامتثال لروح العمل الجاد والمتواصل.

المبحث الثالث

حضارة الانفتاح

الحضارة الإسلامية «حضارة الانفتاح».. وهذا الوصف قريب بل مماثل للاستعمالات الحديثة التي ترمز إلى مفهوم التعايش بين الحضارات والثقافات بل والديانات.

فالحضارة الإسلامية عاشت منذ ولادتها استمرارية تفاعل مع الحضارات الأخرى، ففتحت حدودها الفكرية والنفسية والاقتصادية والاجتماعية على مختلف أنواع البشر، بكافة معتقداتهم وعلى اختلاف مقاصد وأهداف حضاراتهم.

فخير الحضارة الإسلامية جاء ليعم الإنسانية، ويحدث توازناً في العلاقات البشرية داخل منظومة وحدة الأمة الواحدة، بدلاً من التمزق والانحصارية التي دعت إليها بعض الحضارات المادية، بل عاش المسلمون منذ التاريخ الإسلامي الأول وحدة الأخوة التكاملية انطلاقاً من مبدأ: « **لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»[1].

---

(1) أخرجه البخاري.

- في العلوم والمعارف:

لقد استوعب المسلمون الأوائل مقاصد النصوص الإسلامية التي تحث على النظر والبحث والتفكر والتعقل، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ (ق:٦-٨)، فنبغوا وتميزوا في كثير من العلوم، التي يأتي في مقدمتها العلوم الكونية، التي تتصل بالحياة، وهي علوم يمكن النظر إليها باعتبارها علوماً إسلامية صرفة، حيث لم يقتبسها المسلمون من أمة سابقة، بل لم يكن لدى الأمم السابقة نظيرها.

لقد استوعب المسلمون الأوائل قول الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت:٥٣)، فانطلقوا يبحثون في مختلف المجالات، فكانت لهم بذلك اكتشافات علمية هائلة جاءت رائدة في هذا الباب. وظهرت مؤلفات عديدة منها «الكامل في حركات الكواكب» لأبي الوفي محمد الجوزجاني (ت ٣٢٨ هـ)[١]، وألف أبو علي محمد بن جابر البناني (ت ٣١٧ هـ) ثلاثة مجلدات في علم الفلك سماها «معرفة مطالع

---

(١) انظر ظهير الدين بارتولد، تاريخ حكماء الإسلام، ترجمة حمزة طاهر (دمشق:المجمع العلمي) ص ٨٤.

البروج»[1]... وألف أبو معشر ابن محمد البلخي (ت ٢٧٣ هـ) ٣٥ كتاباً[2] في علم الفلك والنجوم منها كتاب «النكت في سنى العالم» وكتاب «هيئة الفلك واختلاف طلوعه» وكتاب «إثبات علم النجوم» . وألف أحمد بن محمد الطيب (ت٢٨٦هـ) «المدخل إلى صناعة النجوم»[3]، ومؤلفات كثيرة جداً ذكرها أصحاب كتب التراجم والفهارس والمعاجم مما يدل دلالة واضحة وقاطعة على الاهتمام الواسع في البحث والتنظير في علوم الكون من لدن علماء المسلمين.

- **أما في مجال الطب والصيدلة** فقد برع المسلمون براعة هائلة، دونت كتب التاريخ أسماءً لامعة ترجمت ونقلت وجربت وهذبت وابتكرت معارف مهمة في مجال الطب والصيدلة.. وقد «نقح علماء المسلمين نظريات وآراء من سبقهم في الطب والعلاجات وأضافوا إليها كثيراً من اكتشافاتهم، وكانت زياداتهم مبنية على المنهج التجريبي العملي، وملاحظة النتائج، ولم يتوقفوا عند التعليلات والتفسيرات الفلسفية التي أبعدت الفكر اليوناني عن اتباع المنهج التجريبي فجعلته يتتبع أوهاماً كثيرة لا أساس لها من الصحة.

---

(١) انظر أبو العباس شمس الدين أحمد بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء الزمان، تحقيق إحسان عباس (بيروت: دار صادر) ١٠٥/٢.

(٢) انظر وفيات الأعيان، ١٤٦/١؛ إسماعيل باشا، إيضاح المكنون من الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (بغداد: مكتبة المثنى) ٨٨/١.

(٣) انظر شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق مجموعة من العلماء (بيروت: مؤسسة الرسالة) ١٠٥/٩.

ونقل الطبيب المسلم داود بن عمر الأنطاكي (١٠٠٨ هـ) في أوائل كتابه «تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب» في الطب، عن بعض شارحي العهد الذي كان يأخذه أبقراط على من يريد أن يزاول مهنة من تلاميذه، يقول: «ويجب اختيار الطبيب حسن الهيئة، كامل الخلقة، صحيح البنية، نظيف الثياب، طيب الرائحة، يسر من نظر إليه، وتقبل النفس على تناول الدواء من يده، وأن يكون متيناً في دينه متمسكاً بشريعته، دائراً معها حيث دارت، واقفاً عند حدود الله تعالى ورسوله، نسبته إلى الناس بالسوا، خلي القلب من الهوى، لا يقبل الارتشا، ولا يفعل حيث يشا، ليؤمن معه الخطا، وتستريح إليه النفوس من العنا»[١].

ومن أشهر الأطباء المسلمين، الذين جمعوا علومهم في الطب في مؤلفات: ابن النفيس مكتشف الدورة الدموية الصغرى[٢]، وابن سينا (٩٨٠ هـ) صاحب له كتاب القانون في الطب، وهو في ثلاثة مجلدات[٣].

وألف أبو زكريا يحيى بن ماسويه في الإسهال والعقم، وألف أبو موسى عيسى بن قسطنطين كتاباً في البواسير وعللها وعلاجها[٤]، وألف أحمد

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة، الحضارة الإسلامية، ص ٥٦٢؛ وانظر أيضاً: قدري حافظ طوقان، أثر العلوم عند العرب (القاهرة: دار القلم، ١٣٨٢هـ).
(٢) النجوم الزاهرة، ٣٧٧/٧.
(٣) الطب الإسلامي، المؤتمر الطبي الإسلامي، الكويت، ص ٢١٤.
(٤) انظر ابن النديم، الفهرست، ط١ (مصر).

ابن أسعد بن العالمة (ت ٦٥٢ هـ) كتاب الإرشادات في الأدوية المفردة؛ كفاية الطبيب[١].

وفي طب العيون ألف حسن بن الهيثم، وألف خلف الطولوني (ت ٣٠٢ هـ) كتاباً سماه: «النهاية والكفاية في تركيب العين»[٢].

وفي الصيدلة والعقاقير ألف أبو بكر بن البيطار كتاب الصيدلة الشهير «الجامع لمفردات الأدوية» ، وهو في أربعة مجلدات، نشر في القاهرة سنة ١٢٩١ هـ، وترجم إلى الفرنسية والألمانية. وألف في الصيدلة أيضاً البيروني والرازي[٣].

أما عن مدارس علوم الطب، فقد أسس خلفاء بني العباس مدارس لتدريس علم الطب في البصرة والكوفة وبغداد ودمشق وغيرها. وكانت مدارس الأندلس الطبية هي المدارس الوحيدة في أوربا، التي تخرج أطباء مؤهلين في الجراحة، وهي تحتوي على دراسة نظرية وأخرى عملية تعتمد على تدريب الطلاب قبل التخرج، فمن نجح ونال الإجازة سمح له بأن يزاول مهنة الطب تحت رقابة الدولة.

أما عن المستشفيات فقد أنشأ الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك في دمشق أول مستشفى عام ٨٨هـ، ثم انتشرت المستشفيات في جميع أنحاء الدول الإسلامية.

---

(١) عيون الأنباء، ٢١٤/١؛ سير أعلام النبلاء، ١٠٥/٩.

(٢) انظر عيون الأنباء، ٢٨٥/٢؛ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية (دمشق: مطبعة الترقي، ١٩٩٥م) ١٠٥/٤.

(٣) انظر عيون الأنباء ٣٠٩/١.

ذلك كله وأوربا لم تكن تعرف من الطب غير الشعوذة وأضرحة القديسين والقديسات وأوثانهم، والتعاويذ والتمائم وأشباهها، بينما كان الأطباء في العالم الإسلامي كثيرين وذوي حظوة[1] لدى الشعوب، وكانوا ذوي مهارات فائقة بالنسبة إلى أدوات عصورهم.

ولما كان لليونان طب علمي طبيعي مزاجي، وكان للهنود طب شخصي روحاني نفسي، وكان اليونان يأنفون من الأخذ بأسلوب الهنود عند التطبب، ولما كان الهنود لا يكترثون بالطب اليوناني، كان العرب المسلمون يأخذون الصالح المفيد من طب هؤلاء وأولئك، من اليونانيين والهنود والكلدانيين والبابليين، فطوروا تجارب هؤلاء بالبحث والتجارب المتواصلة التي جعلت طب العرب المسلمين في الصدارة، منفتح الحدود على المستوى العلمي والإنساني، يفيد من كل العلوم ويفيد كل الأجناس[2].

وفيما يخص علوم الكيمياء، فقد كان للمسلمين اهتمام بالغ بعلم الكيمياء المبني على التجربة والملاحظة ورصد النتائج والاستعانة بالعلوم الرياضية، مستفيدين في ذلك من خبرات البلدان المجاورة.

ومن أهم اكتشافات العرب المسلمين في مجال الكيمياء: المواد الصابغة، وصنع الفولاذ، كما اخترعوا البارود واستعملوه في الأسلحة النارية التي اخترعوها، واخترعوا المدافع والقذائف التي تطلق منها، وقد ذكر المؤرخون

---

(١) انظر عبد الرحمن حبنكة، الحضارة الإسلامية، ص ٥٦٢؛ جلال مظهر، أثر العرب في الحضارة الأوربية؛ زيغريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون وكمال الدسوقي (بيروت: دار صادر).

(٢) انظر تفصيل ذلك في: توفيق يوسف الواعي، الحضارة الإسلامية، ص٤٣٠.

أن العرب استعملوا ذلك في حروبهم مع أعدائهم قبل الفرنجة بمائة عام على الأقل، كما اخترعوا القنابل وذخيرة المدافع.

واستخدم المسلمون علم الكيمياء في الطب والصناعات وصنع العقاقير، وتركيب الأدوية، وتنقية المعادن، وتركيب الروائح العطرية.

ومن أبرز أعلام المسلمين في الكيمياء جابر بن حيان (ت ٢٠٠هـ) الفيلسوف الكيميائي، له مؤلفات عديدة، وكانت له شهرة كبيرة عند الأوربيين بما نقلوه من كتبه في بدء نهضتهم العلمية.

ويعد جابر أول من استخرج حامض الكبريت، وسماه «زيت الزاج» وأول من استحضر ماء الذهب، واكتشف «الصودا الكاوية»، وقد درس خصائص مركبات الزئبق.

كما يعد أبو بكر محمد بن زكريا الرازي من مؤسسي الكيمياء العلمية، وقد ترجمت جملة من كتبه إلى اللاتينية، وظلت مدة طويلة تدرس في جامعات أوربية، ويعد الرازي من العلماء الأوائل الذين طبقوا معلوماتهم من الكيمياء على الطب[١].

كما برع المسلمون العرب في علوم شتى كعلم الفلاحة والنبات، وعلوم الرياضيات والهندسة، وعلم الحيوان ومعارف أخرى مبسوطة في كتب التراجم والمصنفات والتاريخ والطبقات.

---

(١) انظر حبنكة، الحضارة الإسلامية، ص ٥٧٤؛ الواعي، الحضارة الإسلامية، ص ٤٣٨؛ محمد كرد علي، الإسلام والحضارة العربية (بيروت دار الكتب العربية، ١٩٣٤م)؛ عمر رضا كحالة، العلوم البحتة في العصور الإسلامية (مطبعة الحجاز).

ومن خلال هذه النظرة السريعة التي استوضحنا منها، إيجازاً، مجـالات العلوم والمعارف التي برع فيها المسلمون العرب، يظهر جلياً الجهود الكبيرة والعملاقة التي بذلتها الحضـارة الإسلامية منذ نشأتها، وكيف أنها انطلقت في إرسـاء قواعد بنائها، منفتحة على باقي الحضارات، مستفيدة ومفيدة، لا تحدها حدود الزمان والمكان والإنسان.

- في البعد الخيري للإنسان:

إن رسالة الإسلام الحضارية رسالة للناس جميعاً، جاءت لتخرج البشرية من الظلمات إلى النور، ومن الجور إلى العدل، ومن الشرك إلى التوحيد.

وهي رسالة لإعلان مبدأ الأخوة الإنسانية الحقـة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات:١٣).

- لا تفاضل في إنسانية الإنسان:

الدين الإسلامي جاء ليعلم ويخبر الإنسانية بوحدة الأصل البشري، وأن التفاضل مرده إلى الاستقامة والتقوى ونشر مبادئ الخير والفضيلة بين الناس، والمساهمة في بناء أمة حضارية تسعى إلى توحيد الصفوف وإرساء قواعـد البناء الصلب، وإماطة أساليب الهدم، بدءاً بتصحيح العقيدة الواحدة الـتي توحد الإنسانية في المبادئ والمناهج والمقاصد والغايات وتـسعى إلى نبـذ أشكال الظلم والاستبداد كلها، مروراً بنشر قيم الخير السامية الـتي رسـم

طريقها خالق البشرية، رب العباد في آيات القرآن الكريم، وبيَّنها وفصلها رسول الإنسانية محمد بن عبد الله ﷺ في جوامع كلمه.

إن شمولية الإسلام «ليست كما يفترض المنهج «النصوصي» في وجود نصوص وأخبار، وبالتالي وجود أحكام تشمل كل جانب من جوانب حياة الإنسان، ولكنها تتجلى في شمولية الأصول التي يقوم عليها نظام الدين في الإسلام وفي ارتباط هذه الأصول بالحقيقة. كما توجد هذه الحقيقة في حقيقة الإنسان، وفي حقيقة العالم، وحقيقة ما فيه من أشياء، وفي حقيقة النظام الكلي الذي يخضع له هذا العالم.. وصلاحية الإسلام لكل زمان ومكان ليست في أحكام هي أصلح من غيرها في تنظيم حياة الإنسان، أينما كان وفي أي عصر كان، ولكنها في جعل حقيقة الإنسان، وحقيقة العالم لما ينبغي أن يتوجه به الإنسان من تنظيم حياته. أما النصوص العينية وكذلك الأحكام التي استنبطت منها فتقع عندئذ في مواقعها المناسبة لها بعد التعرف على النظام الكلي الذي يمثله الإسلام»[1].

لقد انفرد الإسلام بالاعتراف بالإنسان كما هو في قدرته وفي حقيقته الإنسانية، وكذا ما أودع الله فيه من قدرات عقلية وإرادة سامية في التعرف إلى الله وتوحيده.. هذه القدرات منحة ربانية لكل كائن بشري، وهذا الإبداع الرباني في خلق الإنسان وصفته كثير من نصوص القرآن الكريم، من

---

(١) علي عيسى عثمان، فلسفة الإنسان في الإسلام، ط١ (بيروت: دار الآداب، ١٩٨٦م) ص ٨٨.

ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (السجدة:٧-٩)، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ (الانفطار:٦-٨).

ومن نعم الله على هذا الإنسان أن ركب في فطرته أدوات المعرفة اللازمة لوظيفة الانسجام الكلي مع كليات الحياة، فقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل:٧٨).

أما اختلاف الشعوب والألوان والألسن فهي آيات من آيات الله في خلقه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ (الروم:٢٢).

وبهذا الاعتراف الحضاري للإنسان، يظهر السر في انفتاح الحضارة الإسلامية في مجال البعد الخيري للإنسان، وإن صح القول فعالمية الإسلام تتجلى في عالمية الإنسان.

لقد جاء الإسلام «بهوية جديدة للإنسان وبفلسفة جديدة في الإنسان، وأحدث من أجل استيعاب هذه الهوية أمة جديدة ليس لها مثيل بين الأمم

من قبل... أمة مفتوحة لكل إنسان رأى نفسه كما يراه الإسلام، واستخدم ما جعل الله فيه من قدرات عقلية وإرادة أخلاقية وتحرر من هيمنة البشر، ومن هيمنة العقائد المتوارثة، وتوجه بالحق كما يتجلى في حقيقة الإنسان وفي حقيقة العالم.

وأمة المسلمين ليست كغيرها من الأمم، قبيلة أخرى من القبائل الدينية لها خصوصيات طقوسية وعرقية وغيرها تعزلها عن البشر، ولها تراثها ومنجزاتها في مسيرة الحضارة البشرية، بل هي أمة كل إنسان متحرر أدرك أن خير حياة له وخير مصير له موجود في الفطرة البشرية التي يأتي بها إلى هذه الحياة، وأدرك أيضاً أن خير ما يمكن أن يتوجه به تنظيم حياته موجود في حقيقة الإنسان نفسه وفي حقيقة العالم من حوله. ومن هذا الموقع ينظر ويقدر في تراثه وفي كل تراث بشري ليستخلص منه ما يتطابق مع حريته كإنسان وما يتطابق مع الحقيقة في نفسه وفي العالم. وما تتوصل إليه البشرية من علم فكله لهذه الأمة... وتجارب الأمم في تنظيم مجتمعاتها وفي تجسيد فلسفة معينة في الإنسان كلها ملك لهذه الأمة أياً كان مصدرها.. وأمة المسلمين انتصاراً منها للإنسان كما يراه الإسلام، وانتصاراً منها للحقيقة كما يراها الإسلام، وضعت نفسها في مواجهة دائمة مع غيرها من الأمم التي لا تعترف بالإنسان، ولا تجعل الحقيقة هي ما يتوجه به الإنسان في تفسيره للوجود وفي تنظيم حياته على ضوء

ذلك التفسير»[1]. وبسبب هذه النظرة إلى الإنسان كانت الأمة المسلمة ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران:١١٠).

أما اختلاف الخصائص والهيئات الفردية، التي يفضل الله بها بعض الناس على بعض، فمرده إلى توزيع المهام الاجتماعية والحياتية بين الناس، توزيع تكامل وانسجام في تحديد المسؤوليات والقيام بتكاليف العيش والحياة، قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (الزخرف:٣٢)، وقال تعالى أيضاً: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء:٢٠-٢١).

إن حقيقة المجتمع الإسلامي تنبثق من التلازم الوثيق بين التصور الاعتقادي وطبيعة هذا المجتمع، وكذلك طبيعة النظام الرباني الذي يحكمه.

فهو مجتمع شريعة كاملة، في ظلها تنمو العلاقات الإنسانية وتتحرك، وفي ظلها تتحدد سائر مقومات وجودها وآدابها الفردية والجماعية، في تلائم وانسجام تام مع الفطرة الإنسانية، مع شمولية تامة لكل أصول الحياة الإنسانية من قيم الخير والحق والعدل والإخاء والحرية في انسجام تام بين

---

(١) فلسفة الإنسان في الإسلام، ص ١٠٥.

المثالية والواقعية، يقول الكاتب الفرنسي «مارسيل كابي»: «القرآن كتاب موحى به، وهو يفوق ما عرف من هذا النوع كثيراً، فإن العقيدة الروحية التي بينها ينعكس نورها على الحياة الاجتماعية، وهذا سر قوة الإسلام وسماحته ووحدته»[1].

- حفظ الكرامة الإنسانية:

جاء الإسلام للناس كافة، عقيدة وشريعة ومنهاج حياة، مؤسساً ومعلناً لمبدأ حفظ الكرامة الإنسانية، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلٗا﴾ (الإسراء:٧٠)، ومؤكداً حرمة نفس الإنسان وأهمية حفظها من كل خدش أو انتقاص، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٞ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرٗا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرٗا مِّنْهُنَّۖ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِۖ بِئْسَ ٱلِاسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (الحجرات:١١).

وتجسدت هذه المعاني النبيلة في حكم النبي ﷺ بين الناس، فنراه ﷺ يقيم الوزن بالقسط بين الناس، يحكم بالعدل بينهم، لا فرق عنده بين المسلم والذمي، فها هو ﷺ تعرض أمامه قضية سرقة درع يفصل فيها بالوحي

---

(١) عمر عودة الخطيب، المسألة الاجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية، ط٥ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٠م) ص ١٩٣.

الرباني، حينما اتُهم يهودي بسرقتها بينما السارق أحد المسلمين، فينزل القرآن مبرئاً ساحة اليهودي: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ (النساء:١٠٥-١٠٧) فظهرت براءة اليهودي وأدين المسلم.. إنه دين المساواة والعدل، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة:٨).

ويقول الرسول ﷺ لأسامة، رضي الله عنه، لما جاء شفيعاً في حد: **«أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللّٰهِ»؟ ثُمَّ قَامَ فَخَطَبَ، قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا ضَلَّ مَنْ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ الضَّعِيفُ فِيهِمْ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ اللّٰهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ﷺ سَرَقَتْ لَقَطَعَ مُحَمَّدٌ يَدَهَا»**[١].

وقد أعلن الرسول ﷺ تلك الكرامة وتلك «المساواة الجامعة على رؤوس الأشهاد في خطبة الوداع، **«يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللّٰهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَعَاظُمَهَا بِآبَائِهَا، فَالنَّاسُ رَجُلانِ : بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللّٰهِ، وَفَاجِرٌ**

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الحدود.

شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ، وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ، وَخَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ»[1]، وقال ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلا لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلا لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلا بِالتَّقْوَى»[2].

«وقد أصبح المجتمع الإسلامي يتعامل بتلك الصفات ويطبقها، وينسى تلك العصبية البغيضة، فحين باع حكيم بن حزام داره، وخاطبه في ذلك بعض الناس، يثيرون في نفسه نخوة الأمجاد الموروثة والشرف المستمد من العشيرة والنسب، فاجأهم الرجل بقول جديد في المجتمع العربي، يعكس اتجاهاته، ويصور قيمه الإسلامية تجاه مبدأ المساواة: «يا أيها الناس، لقد أصبح الشرف اليوم بالتقوى»[3].

إن العلاقات في المجتمع الإسلامي إنما تبنى بالدرجة الأولى على أسس معنوية من ود وتراحم: «تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»[4]؛ هذه الأسس تقوم عليها علاقات روحية تربط بين أجزاء الجسد الواحد في تراحم وتلاحم. وبالتالي فإن البناء الاجتماعي يصبح في منعة من التداعي والسقوط، لأن الرابطة المعنوية هي أوثق ما يؤلف بين

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن.
(٢) أخرجه الإمام أحمد.
(٣) مصطفى عبد الواحد، المجتمع الإسلامي (الكويت: دار الأمل) ص ٨٤ .
(٤) أخرجه البخاري ومسلم.

البشر، وهي إنسانية لا تعرف الضيق في أطر مصطنعة ليست أصيلة في الحياة الإنسانية.

وباعتبار الإسلام دين الإنسانية جميعاً، فهو ليس مجتمعاً ضيقاً محدوداً تكوّنه عوامل جغرافية أو عنصرية أو طبقية، لا ينشأ إلا في مناخ خاص وفي ظروف معينة، ولا يحيا إلا في حدود ما يرسم له صانعوه من أصحاب النظم المحدودة، والفلسفات الضيقة، والنزاعات الخاصة... بل هو مجتمع كبير يمتد حتى يشمل الإنسانية كلها بجميع أجناسها وألوانها ولغاتها في كل أرض وفي كل مكان وفي كل زمان»[1].

إن رسالة الإسلام الحضارية أسست كياناً وحدوياً إنسانياً متكاملاً للحفاظ على مصالح المسلمين المشتركة، مهما تباعدت الأزمان والديار، ومهما اختلفت الأجناس والألوان واللغات؛ لذلك فإنه «عند المقارنة بين الأخوة الإيمانية والأخوة في النسب التي تعارف عليها الناس، إذا كان الاشتراك في النسب كافياً لإيجاد رابطة الأخوة بين الأفراد وإن اختلفوا في العقائد والعواطف والمصالح، فإن الاشتراك في العقيدة الراسخة والعاطفة المثلى ونظام العيش الواحد والمصالح المشتركة أحق وأجدر بهذه الأخوة، لأن النسب تلاق في حدود الجسد فقط، أما هذه الأمور فإنها اتحاد في أكرم مقومات الإنسان»[2].

---

(١) المسألة الاجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية، ص ١٩٥؛ وانظر أيضاً: أبو زهرة، المجتمع الإنساني في ظل الإسلام، ط٢ (الدار السعودية: ١٩٨٢م) ص ٨٨.

(٢) عبد الرحمن حبنكة، الحضارة الإسلامية، ص ١٤٢.

الفصل الثاني
جذور الحضارة الإسلامية

إن ارتباط الحضارة بالجذور التاريخية هو ارتباط بالروح والجسد والفكر، فالحديث عن الحضارة الإسلامية حديث عن أفق وتاريخ جذور هذه الحضارة منذ الخليقة الأولى، فهي نتاج أمم تضافرت في إيجاد آلياتها ووسائلها ومقاصدها وبالتالي توظيفها لصالح الإنسان عبر العصور، حيث اشتركت في بلورة تلك النتائج عقول وجماعات أبدعت وصنعت خيوط الحياة، كل من زاوية تدبيره وإبداعه. والأمثلة على ذلك كثيرة؛ وإن أمكن تلخيصها ففي تكييف وتوظيف العناصر الأساسية للحياة من ماء وهواء ونار، حيث كان العقل البشري حاضراً بقوة في تطوير أساليب الحياة؛ ولا أحد ينكر أن الإنسان لما أُنزل إلى الأرض وجدها بكراً، لا صنعة فيها ولا حضارة، وإن كان قد وجد فيها أساسيات العيش من ماء وزرع وضرع.

لقد هيأ الله تعالى لهذه الأرض مخلوقاً عجيباً، وحمله أمانة عمارتها بما ينفع الناس، إنه أبو البشر آدم، عليه السلام. فمن حكمة الخالق أن اختار لهذه الأرض نبياً ورسولاً بعثه ليكون موجهاً ومرشداً وأيضاً صانعاً للحياة ودليلاً ربانياً في بناء أولى الحضارات.

المبحث الأول

النبوات دليل رباني في بناء الحضارات

إن الأنبياء والرسل هم الصفوة المختارة المؤهلة لصنع الحضارات، واقتلاع الأمم من ظلم الجهل والتخلف وإرشادهم إلى طريق النور والصلاح، يقول تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (الرعد:٧).

وثبت في كتب التاريخ الإسلامي وكتب الطبقات والسير وكتب التفسير وقصص الأنبياء أن نهوض وقيام الحضارات الراشدة، على مر التاريخ، إنما كان على يد الصفوة المختارة من الأنبياء والرسل، رواد البناء والتوجيه. وهي شهادة قوية أدلى بها أيضاً كتّاب الغرب المهتمون بالدراسات الاستشراقية، فاعترفوا بأهمية ودور هذه الصفوة القائدة، فقالوا: إن القيادة والريادة لا تعطي أصحابها ميزة مادية أو معنوية على غيرهم من أفراد الجماعة، ولكنهم في واقع الأمر أشد تمسكاً بحقيقة امتياز الفئة القائدة على غيرها .

- النبوة صلة بين الشاهد والغائب:

لأجل قيام التوازن بين عالم الغيب والشهادة ابتعث الله الأنبياء والرسل مبشرين ومنذرين، قائدين وممسكين بزمام الإنسانية إلى بر الأمان، فالنبوة ضرورة حتمية لبني الإنسان بل للكون عامة، فهي مقتضى سر انتظام الكون. وفي هذا الصدد يقول العلامة النورسي، أحد رواد الفكر الإسلامي: «إن

القدرة التي لا تترك نملاً من دون أمير والنحل من دون يعسوب لا تترك حتماً البشر من دون نبي، من دون تشريع.. نعم هكذا يقتضي سر نظام العالم»[1].

ولما كان الإنسان عاجزاً عن إدراك عالم الغيب بيقين اقتضت حكمة الصانع الحكيم أن يصطفي من خلقه أناساً يميزهم بالفطرة السليمة ... يبينوا للناس من أحوال الآخرة ما لا بد لهم من عمله، معبرين عنه بما تحتمله طاقة عقولهم ولا يبعد عن متناول أفهامهم، ويبلغوا شرائع عامة تحدد لهم سيرهم في تقويم نفوسهم وكبح شهواهم، وتعلمهم من الأعمال ما هو مناط سعادهم وشقائهم في ذلك الكون المغيب عن مشاعرهم بتفصيله، اللاصق علمه بأعماق ضمائرهم في إجماله.

إضافة إلى ذلك، فإن الإنسان هو بطبعه كائن اجتماعي، غير أن تفاوت الناس في الإدراك والهمة والعزيمة قد يفضي بهم عن الاجتماع إلى التنازع وفوات المقاصد. فإذا أضفنا إلى هذا ذلك الشعور الفطري الذي يجده كل إنسان في نفسه يدفعه إلى البحث عن قوة أكمل وأقوى، حتى لكأن كل نفس تشعر أنها مسوقة إلى معرفة تلك القوة العظمى، فتطلبها من حسها تارة ومن عقلها تارة أخرى، فتقترب من الحق حيناً وتبتعد أحياناً أخرى، فتدين بالعبودية لمن تظنه الأكمل من المخلوقات والحيوانات والكواكب والأشجار والأحجار[2].

---

(١) الكلمات، للنورسي، ترجمة إحسان الصالحي، مطبعة النسل، ص ٨٤٣ .

(٢) عبد الوهاب بوخلخال، مباحث النبوة وعلاقتها بالإنسان، دراسة ضمن كتاب النظرة القرآنية، ط١ (تركيا: شركة نسل للطبع والنشر) ص ١١٠.

فكل هذه الأمور التي اختص بها الإنسان جعلت منه كائناً في حاجة إلى إنسان مثله يكون له من الكمالات ما لا يكون لغيره، يؤلف بين قلوب الناس، وينزع التنازع من أفئدتهم، ويزرع فيهم بذرة الخير والنماء، التي تؤهلهم لبناء حضارات الحاضر والمستقبل، ولا يتأتى ذلك إلا للأنبياء والرسل المصطفين الأخيار، من دون سائر البشر.

- وظيفة الأنبياء والرسل:

إن سنة التدافع الحضاري والصراع القائم بين الخير والشر، الذي عرفته المجتمعات الإنسانية على مر الدهور، حسم خلافه في محطات معينة أنبياءٌ ورسل، حيث كان الوحي الإلهي في كل حضارة نورَها الهادي وشمسها المشرقة، قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ (الأنعام: ١٢٢).

فالإنسان لم يترك وحده في هذا الصراع والتدافع، بل ظل الوحي الإلهي يصاحبه في كل مرحلة جديدة، وفي كل بعث حضاري جديد، رواده الأنبياء والرسل الذين يصلون الأرض بالسماء، والإنسان بخالقه، عن طريق الوحي الرباني: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ (الشورى: ٥٢).

إن هذه الحلقات الحضارية «تقوم على ظاهرة الفضيلة والرذيلة، ومغزى التاريخ في الإسلام يقرر أن الحق هو المنتصر في نهاية الصراع دائماً. ولقد كان هذا المعنى مصدراً لطموح الإنسانية في الإسلام إلى المثل العليا التي لم تعد عرفاً

اجتماعياً تمليه ارتباطات معينة بالجماعة أو القبيلة أو الوطن، وكذلك لم تكن مبدأ فلسفياً يقوم على نظرية من النظريات، بل أصبحت قيماً ربانية فوق كل هذه الأشكال من المسميات الأرضية، ومن أجل ذلك كانت كل قصة من قصص الكفاح والصراع ضد الباطل غراماً وعشقاً يهيم به أصحاب العقائد والرسالات. وفي النهاية كانت الدائرة تدور على البغي والباغين»[1].

لقد سجل القرآن الكريم الكثير من الصفات النبوية، التي بها تم اختيار الأنبياء واصطفاؤهم، وأصبحوا بها رواداً وقادة مصلحين لما أفسده المفسدون. ففي حق إبراهيم، عليه السلام، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ (النحل: ١٢٠)، وقال في حق غيره من الأنبياء، عليهم السلام: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ (مريم: ٥١)، ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ (مريم: ٥٤)، ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٥٦ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ (مريم: ٥٦-٥٧)، وقال في حق إسحاق ويعقوب، عليهما السلام: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ (مريم: ٥٠)، وقال في حق أيوب، عليه السلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ (ص: ٤٤).

ويروي أنس، رضي الله عنه، في حق النبي الكريم محمد ﷺ: أنه كان «أَحْسَنَ النَّاسِ، وَأَشْجَعَ النَّاسِ، وَأَجْوَدَ النَّاسِ... »[2].

(١) توفيق الواعي، الحضارة الإسلامية، ص ٣٣٥.
(٢) أخرجه البخاري.

إن من الصفات الثابتة للأنبياء والرسل أنه يجب في حقهم الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة، وباستعراضنا لكثير من الآيات القرآنية نقف على هذه الصفات وعلة تجلياتها في المجتمعات البشرية، فالصدق يتجلى في مطابقة خبرهم للواقع، وأنهم لا ينطقون عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى. أما الأمانة فهم أحفظ الناس للحقوق وأظهر للحق والعدل بين الناس. وأما التبليغ فلأنهم أهل الفصاحة والبيان لما نزل إليهم من الوحي وتبليغه وإفهامه للناس وتنزيله حسب مداركهم وعقولهم. وأما الفطانة فهم أكمل الخلق في الفطانة والفهم. هذه بعض أوصاف النبوة «التي لا تكون بالكسب كما زعمت الفلاسفة وإنما تأتي من بين اختيارات الله تعالى التي خص بها الموجودات»[1].

إن هذه الصفات الثابتة لهم أهلتهم للقيام بالوظائف النبوية لأجل هداية الناس في شؤون حياتهم في الدنيا وفي الآخرة، فهم بُعثوا للاتباع والاقتداء، حيث «يبين القرآن أن الأنبياء - عليهم السلام- قد بعثوا في مجتمعات إنسانية ليكونوا لهم أئمة الهدى، يقتدى بهم في رقيهم المعنوي، ويبين في الوقت نفسه أن الله قد وضع بيد كل منهم معجزة مادية ونصبهم رواداً للبشرية، وأساتذة لها في تقدمها المادي أيضاً»[2].

---

(١) انظر الجواهر الكلامية في ايضاح العقيدة الإسلامية تقديم محمد صالح الصديق (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٩٠م) ص ٦٨؛ البيجوري، تحفة المريد على جوهرة التوحيد، ص ٧١.

(٢) النورسي، الكلمات، ص ٢٧٩.

وإذا نحن تأملنا فحوى هذه الوظائف الحضارية نجدها قد تميزت بالعديد من الخصائص، من أبرزها:

- **تجلية الحقيقة العقيدية**: وهي أن الأنبياء والرسل جميعاً جاءوا بكلمة واحدة وقضية واحدة على تتابع الأجيال، توحد الناس في ربوبية الخالق وأيضاً في ألوهيته، التي تجلت في كلمة واحدة هي «لا إله إلا الله»، يقول تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ... ﴾ (الأعراف:٥٩-٨٥).

ولقد جاءت في القرآن الكريم آيات كثيرة تجمع بين المهمة والقضية التي جاء بها الرسل «إذ وحدت قول الرسل كلهم في عبارة واحدة يكررها كل رسول، ثم جعلت كل قوم بمفردهم يكذبون «المرسلين» جميعاً بتكذيبهم للرسول الخاص الذي أرسل إليهم. وكذلك ما جاء في سورة الفرقان عن قوم نوح من أنهم كذبوا «الرسل» مع أنهم كذبوا رسولهم الخاص وحده وهو نوح، ولكن ذلك بمثابة تكذيب الرسل جميعاً، قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَـٰهُمْ وَجَعَلْنَـٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (الفرقان:٣٧). ومن أمثلة النوع الثالث ما جاء في سورة الحاقة، قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ

نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ۝٧ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ۝٨ وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً﴾ (الحاقة: ٤-١٠).

والتعبير وإن كان يفهم منه كما قلنا إن كل فرقة من هؤلاء قد عصت رسولها والمؤتفكات قد جمعوا في رسول واحد، لأن مهمتهم كلها واحدة وقضيتهم كلها واحدة... فكأنهم رسول واحد تكرر بعثه لكل فرقة منهم في حينها»[1].

إن أهمية تقرير وحدة الرسالة ووحدة العقيدة هو طريق نحو وحدة الأمة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٩٢).

- إبراز مصدر الوجود وغايته ومصيره:

إن الطبيعة المزدوجة في خلق الإنسان، من قبضة الطين ونفخة الروح، له دلالات قوية بيّنها الأنبياء والرسل في أن مهمة الخلق هي عمارة الأرض وتحقيق العبادة لله الواحد الأحد؛ والإعمار في الأرض هو إقامة الحياة وبناء الحضارات، قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ (هود: ٦١) أي جعل أصل خلقكم من طينة الأرض وكلفكم بعمارتها، وهذا يدل دلالة قوية على الانسجام الرباني في انتظام هذا الكون البديع، الذي أنشأ فيه من كان من أصله وهو الإنسان، فيسر له طريق وسبل عمارة هذه

(١) محمد قطب، دراسات قرآنية، ص ١٠٣.

الأرض ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ (الملك:١٥).

إن هذه العمارة الإنسانية للأرض وتسخير خيرات الكون لهذا الإنسان المستخلف يحتاج إلى تنظيم سياسي واقتصادي واجتماعي، في ظل حضارة إنسانية مكتملة الأركان، واضحة المعالم، تتحقق عن طريقهما عبادة خالق هذه الأكوان وإظهار الألوهية له؛ لأن غاية الإنسان هو التعرف على الله تعالى وصفاته وقدرته في تدبير الكون وشؤونه، وهي غاية لا تتأتى للإنسان بمفرده وبمعية عقله البشري القاصر، بل لا بد أن تنساق تدبيراته بإرشاد مرشد وهداية هاد.

وهذه هي وظيفة الأنبياء والرسل في إظهار ما انطوى عليه الكون من دلائل الألوهية لتكون نبراساً مضيئاً للإنسان في إقامة الحياة على أساس من العدل والبناء النافع.

- الأمة المؤمنة هي أمة الأنبياء:

إن دعوة الرسل جميعاً تدور حول قضية واحدة هي عبادة الله وحده وترك عبادة من سواه، هذا هو لب دعوة الرسل ومجمع رسالتهم.

والإسلام هو نداء عام، دعا إليه كل الأنبياء والرسل منذ فجر الخليقة الأولى إلى عصر الرسالة المحمدية. فالإسلام هو الطاعة والانقياد والاستسلام لله تعالى بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه.

فحينما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ (آل عمران:١٩) كان يشير سبحانه إلى أن دعوات الأنبياء والرسل والكتب التي أنزلت عليهم تحمل تعاليم الدين الواحد في العقيدة الواحدة والتسليم لمعبود واحد، فهو دين يدعو إلى إفراد الله بالعبادة ونبذ ما سواه من المعبودات المادية والمعنوية.

ولا يقتصر مفهوم المؤمن على مؤمني أمة محمد ﷺ بل هو مفهوم شامل يشمل كل من آمن بالأنبياء والرسل قبله، في أزمانهم؛ لأنه لا بد للمؤمن أن يدخل في الأمة المؤمنة من لدن آدم إلى نوح... إلى محمد ﷺ «ويحس أنه واحد من هذه الأمة المتجانسة على مدة التاريخ وإن اختلفت ألوانها وألسنتها وأمكنتها وأزمنتها. ولا بد له كذلك أن يؤمن بوحدة الطريق الذي سلكته هذه الأمة في أطوارها المتوالية وأجيالها المتعاقبة... وأن الرسل جميعاً أرسلوا من عند الله، وبلغوا ما أوحي إليهم من عند الله.. إله واحد وعقيدة واحدة، وطريق واحد، وإن اختلف الرسل، كل بلسان قومه وكل في مكان بعينه. ولكن وجهتهم جميعاً واحدة، كلهم يلتقون في الله، وأممهم تلتقي في الله»[1].

ومن تمام الإيمان في الأمة المسلمة أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله كما ورد في حديث جبريل، عليه السلام، وأن يشعر كل مؤمن مسلم بتلك الأخوة مع المؤمنين السابقين وبتلك الوحدة في الدين.

---

(١) دراسات قرآنية، ص ٩٠.

لذلك كلفت الأمة الخاتمة والمهيمنة بالإيمان بالرسالات السابقة، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة:٤٨).

ومن عظيم حكمة الله عز وجل أن جعل معجزات الرسل من جنس معاش القوم المرسل إليهم، إمعاناً في الحجة وقطعاً للعذر.

فالمعجزة دليل على النبوة؛ لأن كل دعوى لا تقترن بدليل تكون غير مقبولة وغير مؤثرة، لذلك نجد أن القرآن الكريم يبين « أن الاقتداء بالأنبياء واتباعهم اتباعاً كاملاً في الأمور المادية والمعنوية يجعل الإنسان يستزيد من نور الخصال الحميدة التي يتحلى بها الأنبياء وذلك عند بحثه عن كمالاقم المعنوية. فإنه عند بحثه عن معجزاقم المادية أيضاً يومئ إلى إثارة شوق الإنسان ليقوم بتقليد تلك المعجزات التي في أيديهم ويشير إلى حضه على بلوغ نظائرها، بل يصح أن هذه المعجزات هي التي أهدت إلى البشرية الكمال المادي لأول مرة مثلما أهدت إليها الكمال المعنوي. والقرآن الكريم بإيراد معجزات الأنبياء إنما يخط الحدود النهائية لأقصى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان في مجال العلوم والصناعات، ويشير إلى أبعد نهاياقما وغاية ما يمكن أن تحققه البشرية من أهداف، فهو بهذا يعين أبعد الأهداف النهائية لها ويحددها. ومن بعد ذلك يحث البشرية ويحضها على بلوغ الغاية ويسوقها إليها، إذ كما أن الماضي مستودع بذور المستقبل ومرآة تعكس شؤونه، فالمستقبل حصيلة بذور الماضي ومرآة آماله»[١].

(١) الكلمات، ص ١٧٩.

وتكون المعجزات بذلك هي الآيات التي أجراها الله على أيدي الرسل، تصديقاً لهم وبرهاناً لما جاءوا به من الحق.

فموسى، عليه السلام، أرسل في قوم كان السحر فيهم رائداً ومهيمناً فآتاه الله من الآيات ما فاق به قدرة السحرة على أن يأتوا بمثله، فلما رأى السحرة ذلك استسلموا وعلموا أن هناك قدرة ربانية وراء هذا الكون، وأن رسالة موسى، عليه السلام، هي رسالة حق ووحي سماوي فأذعنوا للإيمان بنبيهم.

ولما بعث الله تعالى عيسى، عليه السلام، في بني إسرائيل كان الطب فيهم رائداً، فاقتضت حكمة الله تعالى أن جعل معظم معجزاته، عليه السلام، من قبيل أعمال أهل الطب فأبرأ الله على يديه الأبرص والأكمه، وأحيا الموتى، وأبرأ الأمراض المستعصية التي لم يكن بمقدور الأطباء مداواتها، فأعطاه معجزة الشفاء بلمسة أو دعاء. فمعجزته هذه كانت داعياً وموجباً لإيمان كثير من بني إسرائيل.

وسخر لسليمان، عليه السلام، الريح فكان يقطع المسافات في يوم واحد مما يقطعه غيره في شهرين ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ﴾ (سبأ: ١٢).

وألين الحديد لداود، عليه السلام، كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ (سبأ: ١٠).. فتليين الحديد نعمة إلهية، وكذلك إذابة النحاس،

وإيجاد المعادن وكشفها هو أصل جميع الصناعات البشرية وأصل التقدم التكنولوجي وعصر العولمة في عهودنا هذه.

كل ذلك تنبيه للغافلين على أن بدايات التقدم الحضاري تأسست على يد الأنبياء والرسل، الذين أوضحوا للأقوام مناهج التقدم العمراني والصناعي وكذلك الاستقرار الاجتماعي على هدى من الله وبصيرة منه.

أما نبينا محمد ﷺ فكانت معجزته الكبرى في القرآن الكريم، إذ لما كان قومه أهل فصاحة وبيان، جعل معجزته من جنس ما نبع فيه العرب وهو الكلام البليغ.

كل هذه المسائل المتعلقة بالبناء الحضاري في حياة الأمم السابقة بقيادة الأنبياء والرسل أخبر عنها القرآن الكريم لتكون سنداً ودليلاً وعبرة لأمة محمد ﷺ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ (الشورى:٥٢-٥٣)، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ (طه:٩٩-١٠١).

فالقيم والمبادئ الإنسانية المثلى هي التي تخدم القضايا العمرانية. والبناء الحضاري المادي لا قيمة له إذا أفرغ من روح القيم والفضيلة القائمة على

مبدأ العدل والرحمة والإحسان.. فالقيم هي روح الحضارة، وهي القائمة على حراسة حدودها من عبث العابثين وإفساد المفسدين، قال تعالى مجسداً هذه الحقيقة: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (الشعراء:١٢٨-١٣٥).

وفي السياق نفسه يستعرض الحق سبحانه أنواع الحضارات التي فرغ محتواها من القيم ومن روح تحميها من الزوال ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ (غافر:٨٢-٨٥).

المبحث الثاني

آدم، عليه السلام، مؤسس الحضارة والعمران

شاء الله عز وجل أن خلق السماء والأرض وما بينهما، وأن ألوهيته تعالى شاملة لأهل الأرض وأهل السماء وسائر الأكوان.. وكما شاء أن يكون إعمار السماء ملائكة شاء أن يكون إعمار الأرض بشراً، وبذلك خلق آدم، عليه السلام، وزوجه حواء، مستخلفين في الأرض، وبيّن تعالى منهج الخلافة فجعل عمارة الأرض في ظل منهج الله تختلف اختلافاً رئيساً عن منهج عمارة الأرض في ظل منهج الشيطان، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ فكان جواب الرحمن لملائكته: ﴿ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وأشار إليهم سبحانه أن هذا المستخلَف سيكون مسترشداً بعلم الله، وعمارته للأرض ستكون على هدى وبصيرة منه سبحانه، فقال: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ... ﴾ (البقرة: ٣٠-٣٣).

إن خلق آدم، عليه السلام، بادئ الأمر يؤكد وحدة الأصل البشري ووحدة الأبوة التي تشير إلى دلالات قوية وعميقة وإلى الحنين إلى هذا الأصل الذي تشرف بالتكريم الرباني حين خلقه الله عز وجل بيديه الكريمتين ونفخ

فيه من روحه العليـــة: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ (ص: ٧١-٧٢).

إنها إشارات قوية إلى بني الإنسان أن يحافظوا على هذا التكريم الرباني بالتقوى، بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١).

وقد وردت في أصل خلق آدم أحاديث كثيرة لها دلالات وإشارات قوية، كما في حديث أبي موسى، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الأَرْضِ، فَجَاءَ مِنْهُمُ الأَحْمَرُ وَالأَبْيَضُ وَالأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزْنُ، وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ**»(١).

- حضارة وعمارة على مفترق الطرق:

لقد شاءت حكمة الله عز وجل أن يجعل من ذرية آدم مصلحين ومفسدين، وجعل عمارة الأرض قائمة على صراع دائم بين الحق والباطل وعلى سنة الدفع الكوني بين الخلائق والأكوان.

وتتضح هذه الصيرورة السنية في أول بعث بشري على الأرض حين اعترض الشيطان على السجود لأكرم خلق استخلفه الله في الأرض

---

(١) أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

واستعمره فيها، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ (الإسراء: ٦١-٦٥).

لقد افترق عباد الله في الأرض بين مصلح ومفسد من لدن آدم، عليه السلام، إلى محمد ﷺ ذلك لأن آدم، عليه السلام، خلق من طبيعة مزدوجة «من عنصرين اثنين: قبضة الطين ونفخة الروح، وما نشأ عن ذلك من وجود طريقين، طريق الطاعة وطريق العصيان، طريق التزكية وطريق التدسية، طريق الهدى وطريق الضلال، أولهما يكون حين تكون الروح في كيان الموحد المترابط فهي صاحبة السلطان، والآخر يكون حين يكون الجسد في الكيان الموحد المترابط هو صاحب السلطان، ولكنه في كل حالاته روح وجسد مترابطان لا ينفصلان[١].

إن طبيعة الانسجام في خلق آدم من طينة الأرض ثم استخلافه فيها هو من باب تيسير سبل التعايش في طريق إنشاء حضارة تتناسب مع طبيعته

(١) محمد قطب، دراسات قرآنية، ص ١١٧.

البشرية وحاجاته الأرضية، و ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، لقد علمه وأخبره بكل الوسائل والأدوات الأساسية لبناء حضارته على الأرض ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود:٦١).

علمه أسماء كل شيء، وسخر له كل شيء في الكون، في البر والبحر والسماء ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل:١٤).. إن من الرحمة الربانية على العباد أن سخر لهم سبحانه وتعالى الكون والحياة وكرمهم بآدميتهم على سائر المخلوقات.

إن نوع العمارة التي أرادها الله عز وجل لعباده هي تلك العمارة المقرونة بالعبادة والطاعة والانقياد والشكر للنعم الوافرة، فإذا خرجت عن هذا المفهوم فقدت مهمة الاستخلاف غايتها ومقصدها؛ لأن المستخلَف يبتغي مرضاة مَنْ أهَّله لهذه الخلافة. والخروج عن الطاعة هو جحود ونكران وعصيان لمنهج الله وأوامره.

إن المعرفة التي حازها الإنسان على مر الدهور والعصور تعود جذورها إلى أبيه آدم، عليه السلام، الذي علمه ربه أسماء كل شيء وحاز الشرف الآدمي حين أسجد له الملائكة؛ وعليه فلا يصح منهجياً حينما نتحدث عن الحضارة الإسلامية أن نغفل الحديث عن جذورها الأولى.

أخرج البخاري عن أنس بن مالك، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: **« يَجْتَمِعُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُونَ: لَوِ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ أَبُو النَّاسِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلائِكَتَهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، فَاشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّكَ...»**[1]، فدل ذلك على أن الأمة المؤمنة هي أمة واحدة، يعود أصلها إلى النبي آدم، عليه السلام، الذي حمل رسالة العلم الحضارية إلى الناس جميعاً من لدنه، عليه السلام، إلى خاتم الرسالات والنبوات محمد ﷺ الذي ترعرع نوره وآدم بين الروح والجسد وصلاً للماضي بالحاضر، وحفاظاً على سريان دم العقيدة الواحدة في عروق الأمة المؤمنة.

وهناك روايات كثيرة تحقق أصل هذا النور وانتقاله من صلب إلى صلب حتى صار إلى محمد ﷺ. ولعل من أبرزها ما أخرجه البخاري عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: **« بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ، قَرْنًا فَقَرْنًا حَتَّى كُنْتُ مِنَ الْقَرْنِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ»**[2].

وهذا مما يشير ويؤكد الربط الحضاري بين سلالة الأنبياء في البناء العقيدي للأمم، وربط الشاهد بالغائب، من لدن آدم، عليه السلام، إلى نبوة محمد ﷺ.

وفي هذا السياق ينقل الحافظ جلال الدين السيوطي من كلام الإمام أبي الحسن الماوردي في كتاب «أعلام النبوة» قوله: «لما كان أنبياء الله

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ الحديث رقم ٨٧.

صفوة عباده وخيرة خلقه، لما كلفهم بالقيام بحقه والإرشاد لخلقه، استخلصهم من أكرم العناصر، واجتباهم بمحكم الأواصر، فلم يكن لنسبهم من قدح ولمنصبهم من جرح، لتكون القلوب لهم أصفى، والنفوس لهم أرضى، فتكون الناس إلى إجابتهم أسرع، ولأوامرهم أطوع، وإن الله استخلص رسوله ﷺ من أطيب المناكح، وحماه من دنس الفواحش، ونقله من أصلاب إلى أرحام منزهة»[1].

إن الخلافة الراشدة والعمارة الراشدة تحقق حضارة راشدة، لذلك كانت قصة آدم، عليه السلام، والتي حكاها القرآن الكريم في آيات متعددة ذات دلالة خاصة، فهي تحدد للبشر مبدأهم ومنتهاهم ودورهم في الأرض وخطة سيرهم فيها والعقبات التي تقابلهم.

وتتجلى العبرة واضحة في الصراع الذي سجله التاريخ بين الشيطان والإنسان، هذا الصراع الذي امتد منذ الخليقة الأولى وسيبقى قائماً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

---

(١) انظر النص في محمد المهدي بن أحمد بن علي الفاسي، سمط الجوهر الفاخر، من مفاخر النبي الأول والآخر، دراسة وتحقيق سعاد رحائم، أطروحة جامعية، ٢٠٠٠م ص ١٤٠.

المبحث الثالث

محطات رسالية في عهود نبوية

إن نبوة آدم، عليه السلام، تجلت في عمارة الأرض والاستخلاف للذرية، هذه الذرية التي تناسلت منها فرق آدمية كثيرة، فعن أبي الدرداء، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ حِينَ خَلَقَهُ فَضَرَبَ كَتِفَهُ الْيُمْنَى فَأَخْرَجَ ذُرِّيَّةً بَيْضَاءَ كَأَنَّهُمُ الذَّرُّ، وَضَرَبَ كَتِفَهُ الْيُسْرَى فَأَخْرَجَ ذُرِّيَّةً سَوْدَاءَ كَأَنَّهُمُ الْحُمَمُ، فَقَالَ لِلَّذِي فِي يَمِينِهِ إِلَى الْجَنَّةِ وَلا أُبَالِي، وَقَالَ لِلَّذِي فِي كَفِّهِ الْيُسْرَى إِلَى النَّارِ وَلا أُبَالِي»(١).

- الرسالات النبوية نور حضاري للأمم:

إن الأنبياء والرسل جميعاً هم من سلالة آدم، عليه السلام، وفي عددهم يروي أبو ذر الغفاري، رضي الله عنه، قال: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الأَنْبِيَاءِ كَانَ أَوَّلُ؟ قَالَ: آدَمُ.. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَنَبِيٌّ كَانَ؟ قَالَ: نَعَمْ، نَبِيٌّ مُكَلَّمٌ .. قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَمِ الْمُرْسَلُونَ؟ قَالَ: ثَلاثُ مِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ جَمًّا غَفِيرًا.. وَقَالَ مَرَّةً: خَمْسَةَ عَشَرَ»(٢).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد.
(٢) أخرجه الأمام أحمد.

وفي رواية أخرى للإمام أحمد، قال: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّه، كَمْ وَفَى عِدَّةُ الأَنْبِيَاءِ؟ قَالَ: **مِائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا، الرُّسُلُ مِنْ ذَلِكَ ثَلاثُ مِائَةٍ وَخَمْسَةَ عَشَرَ جَمًّا غَفِيرًا**».

وكثرة إرسال الرسل دليل على الاهتمام الرباني بالإنسان، الذي أكرمه ربه أحسن تكريم، فاهتم بكل الأقوام والأمم وأيدهم بنصره وبهديه حين أرسل الرسالات تترى لإخراج الناس من الظلمات إلى النور. فكلما خفت أو ولّى نور حضارة أمة من الأمم، إلا وبعث الله نبياً يجدد انبعاث هذا النور الهادي والمنير إلى طريق الرشاد، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (النساء:١٦٣-١٦٥)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ (النحل:٣٦).

وكانت أول النبوات بعد وفاة آدم، عليه السلام، نبوة نوح، عليه السلام، وكان بينه وبين آدم، عليه السلام، عشرة قرون. عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: «**كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على**

الإسلام»[1]. وفي ذلك دلالة قوية على أن الشرائع التي أتى بها الرسل جاءت كلها على دين الإسلام، لأنها تحمل عقيدة واحدة وإن اختلفت الشعائر التعبدية. فاختلافها يتناسب وطبائع الأمم التي بعث إليها الرسل؛ هذا في صورها وهيئاتها، بينما هي في عمقها ودلالاتها واحد لا اختلاف فيه. والشواهد على ذلك كثيرة وأجلاها وأوضحها إمامته ﷺ بجميع الأنبياء والرسل حينما أسرى به الله سبحانه وتعالى إلى بيت المقدس ليلة الإسراء. فدلت هذه الإمامة على وحدة العقيدة والدين ووحدة الأمة المؤمنة، وهذا هو مفهوم التعايش الحقيقي الذي دعا إليه كل الأنبياء والرسل.

ولما انتهت قرون الإسلام في عهد آدم، عليه السلام، تلتها قرون الجهل والضلالة والكفر وعبادة الأصنام والطواغيت، حينها بعث الله نبيه ورسوله نوحاً، عليه السلام، فكان أول رسول بعث إلى أهل الأرض[2] كما في الصحيحين في حديث الشفاعة عن أبي هريرة، رضي الله عنه: «...**فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا، أَمَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ، أَلا تَرَى إِلَى مَا بَلَغَنَا، أَلا تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ...**»[3]؛ فدعا قومه إلى توحيد العبادة لله واجتناب الطاغوت

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في جامع البيان، ٢/١٩٤؛ الحاكم في المستدرك على شرط البخاري.

(٢) انظر أبو أسامة سليم الأثري، صحيح قصص الأنبياء، تأليف أبي الفداء ابن كثير، ط٢ (الكويت: غراس للنشر، ٢٠٠٢م) ص ٤٨.

(٣) أخرجه البخاري.

فقال لهم مخاطباً: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ (الأعراف:٥٩).

لم تنجح فيهم دعوة نوح، عليه السلام، بل استمر أكثرهم على الضلالة والطغيان وعبادة الأصنام ونصبوا له العداوة في كل وقت وأوان وتنقصوه وتنقصوا من آمن به وتوعدوه بالرجم والإخراج[١].

لقد اتسمت طباع قوم نوح بالكفر والعناد والنكران في الدنيا وكذلك في الآخرة، فعن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: «يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، أَيْ رَبِّ.. فَيَقُولُ لأمَّته: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: لا، مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ! فَيَقُولُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ ﷺ وَأُمَّتُهُ.. فَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ»[٢]، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ (البقرة:١٤٣).

إنه ربط وتواصل في عالم الشهادة بين أبناء العقيدة الواحدة وأبناء الحضارة الواحدة، وأيضاً هو ربط وتواصل في عالم الغيب حتى تكون أمة الوسط والعدل شهداء وحجة على الرافضين لعقيدة التوحيد.

إن حضارة الإسلام هي وصل بين الحاضر والماضي في عالم الدنيا وعالم الآخرة، وهي وصل وعلاقة متماسكة تحكمها سنن ربانية لا تبديل فيها ولا تغيير لأمر الله ومراده في خلقه وكونه.

---

(١) انظر صحيح قصص الأنبياء، ص ٥٨.
(٢) أخرجه البخاري، رقم ٣٣٣٩.

إن حضـــارات الأنبياء تأتي لتتحـــدى الجهل والطغيـــان والتمـــرد، فكلما آلت قيم البناء الحضاري في أمة من الأمم إلى الـــسقوط والنكـــوص وساد الظلم والجهل، وتعددت المعبودات، وحصلت القطيعة بين عالم الغيب والشهادة يتجدد البعث النبوي، وتتبدل الأقوام بأخرى أفضل منها وأقـــوى على بناء بعث حضاري جديد قوامه العقيدة الواحدة.

إن أمة محمد ﷺ هي الأمة الحق، التي «تشهد على شهادة نبيها الصادق المصدوق بأن الله قد بعث نوحاً بالحق، وأنزل عليه الحق، وأمره به، وأنـــه بلغه إلى أمته على أكمل الوجوه وأتمها، ولم يدع شيئاً مما ينفعهم في دينهم إلا وقد أمرهم به، ولا شيئاً مما قد يحزهم إلا وقد نهاهم عنه وحذرهم منه. وهذا شأن جميع الرسل»[1].

لقد سبق القول على الطاغين من قوم نوح فأصابهم الطوفان، وبأمرٍ من الله عز وجل حمل نوح في سفينته من كلٍ زوجين اثنين، مـــن الحيوانـــات وسائر الأنعام، لبقاء الحياة وبقاء نسلها، وحمل معه أهله إلا من كفر منهم، قـــال تعـــالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ (هود: ٤٠).

ثم قال تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ (هـــود:٤٨)

---

(١) صحيح قصص الأنبياء، ص ٦٣.

هذا أمر لنوح، عليه السلام، لما نضب الماء عن وجه الأرض وأمكن السعي فيها والاستقرار عليها، أن يهبط من السفينة التي كانت قد استقرت بعد سيرها العظيم على ظهر جبل الجودي، وهو جبل بأرض الجزيرة مشهور ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ﴾ أي اهبط سالماً مباركاً عليك وعلى أمم ممن سيولد بعدك، أي من أولادك، فإن الله لم يجعل لأحد ممن كان معه من المؤمنين نسلاً وعقباً سوى نوح، عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ (الصافات:٧٧). فكل من على وجه الأرض اليوم من سائر أجناس بني آدم ينسبون إلى أولاد نوح الثلاثة، وهم سام وحام ويافث[١].

وبعد نوح، عليه السلام، بعث الله من ذريته هوداً، عليه السلام، إلى قومه عاد، وكانوا عرباً يسكنون الأحقاف وهي جبال الرمل[٢] كانت باليمن بين عمان وحضرموت، وكانوا كثيراً ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ (الفجر:٦-٧) والمقصود بعاد ارم: عاداً الأولى، وكانوا أول من عبد الأصنام، فبعث الله فيهم هوداً فدعاهم إلى عبادة الله، وفيهم قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ... ﴾ (الأعراف:٦٥-٦٩).

(١) انظر كتب التفاسير، جامع البيان لابن جرير الطبري، وتفسير ابن كثير، وصحيح قصص الأنبياء، ص ٦٩.

(٢) انظر معجم البلدان لياقوت الحموي.

لقد سخر الله لعاد، قوم هود، عليه السلام، كل أسباب ومعالم الحضارة المادية والمعنوية، قوة في الأجسام، ووسائل العمران الضخمة، والعيون، والأنعام، وكل أسباب الرفاهية والغنى والرخاء، ثم بعث فيهم رسولاً يردهم إلى وحدة العقيدة وإخلاص العبودية لله، لكن العصيان أعمى بصيرتهم وأفقدهم صوابهم، فأشركوا بالله الواحد القهار، وكفروا النعمة، وازدادوا طغياناً ونفوراً من دعوة نبيهم هود، عليه السلام.

ولقد عدد القرآن الكريم، من خلال قصتهم، النعم الحضارية، التي تضمن البقاء وتؤمن الاستخلاف والعمارة في الأرض، فقال تعالى: ﴿...أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء:١٢٣-١٣٩).

إن هذه الوقفات السريعة مع رسالة نوح، عليه السلام، وهود، عليه السلام، تدلنا دلالة قاطعة على المد الحضاري الذي سلكه هؤلاء الرسل مع أممهم في تبليغ الرسالة الحضارية التي تحمل في صورها وعمقها عناصر البقاء، وعناصر الحياة، وتتشرب روح العقيدة الإسلامية السمحة. وفي الوقت نفسه دلت نصوص القرآن الكريم على أن من أسباب سقوط الحضارات وزوالها عبادة ما سوى الله وتكذيب الرسل برسالاتهم.

فمفهوم الحضارة بهذا المعنى هو اندماج وتزاوج بين الروح والمـــادة، فمهما تجوفت الحضارة من روحها سقط بناؤها وارتجت أركانها؛ لأن فضيلة الغنى المادي تكمن وتكتمل بفضيلة الغنى الروحي، الذي يضمن لها البقـــاء ويؤمن لها أوكسجين الحياة، فكم من غني يملك كنوز الدنيا لا يجد سعادة، وكم من فقير لا يملك قوت يومه ينعم بسعادة، والفرق بينهما تلك الروح الإيمانية التي تمد صاحبها بطاقة التنعُّم والتلذذ بعبقها وريحها. وهذا هو السر العميق والحكمة البالغة في ازدواجية الخلق الآدمي، قبضة الطـــين ونفخـــة الروح؛ لأن أصل الحياة هو هذا التزاوج والاندماج بين هذين العنـــصرين، المهمين في تحقيق مفهوم العمـــارة والاستخـــلاف، والغاية من خـــلق آدم لا تنحصر في الإعمار وحده بل في تحقيق الاستخلاف عن طريق العبادة.

لذلك فإن «محاولة تحويل العبادة بالنسبة لله سبحانه وتعالى إلى مجـــرد الإقرار بوحدانيته، وتقديم شعائر التعبد إليه دون الطاعة والاتباع فيما أمر به من تشريعات وتنظيمات تنظم حياة البشر على الأرض، هي مغالطة لغويـــة للمعجم القرآني فضلاً عن زيغها العقيدي وضلالها السلوكي، ولكنها مغالطة مكشوفة حين نرجع إلى معنى العبادة بالنسبة للشيطان.

ومن ثم فإن (لا إله إلا الله) لا ينتهي مدلولها ولا مفعولها عند الإقـــرار بوحدانية الله وتقديم الشعائر التعبدية فحسب، بل معناها هو الطاعـــة لله، والحكم بما أنزل الله واتباع منهج الله ...

وحين نتدبر وضع عمارة الأرض في المنهج الرباني يتبين لنا أمـــران في وقت واحد:

الأمر الأول: أن عمارة الأرض في ظل منهج الله تختلف اختلافاً رئيساً عن عمارة الأرض في منهج الشيطان، كلا المنـــهجين يـــستخدم قـــدرات الإنسان ومواهبه وقدرته على الإبداع، فيستخلص بذلك كـــل طاقاتـــه في الكون ويسعى بالعلم النظري والتطبيقي إلى تسخير هذه الطاقات لـــتعمير الأرض وتيسير الحياة للإنسان.

فالأول ينظر إلى الأمر على أنه عبادة فيتقي الله فيما يصنع، لا يظلـــم ليسيطر، لا يظلم ليقيم حضارة على حساب الآخرين، ولا يفسد الأخلاق ليقيم حضارة.

وأما الثاني: فإنه يعمر الأرض للاستمتاع ومن ثم تهون في نظره القـــيم كلها أو تنفى؛ لأن القيم كلها قيد على المتاع عن أن يكون متاعاً حيوانيـــاً وتطهيره ليكون خليقاً بالإنسان.

الأمر الثاني: أن عمارة الأرض في ظل منهج الله لا يضع فارقـــاً بـــين العمل للدنيا والعمل للآخرة، وإنما هي أعمال كلها من نـــوع واحـــد وإن اختلفت أشكالها، تحمل معنى واحداً يتجلى في مفهوم العبادة»[1].

---

(١) انظر تفصيل ذلك في محمد قطب، دراسات قرآنية، ص ١٢٨-١٢٩.

المبحث الرابع

إبراهيم، عليه السلام، مجدد البعث الحضاري

إن القاعدة القرآنية القائلة: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ تدل دلالة قوية على سنة التداول الحضاري للأمم، كما تستوعب في مضمونها الموجز حضارات تعاقب عليها أنبياء ورسل جددوا بناء الأقوام على شريعة وهدى من الله.

فمن سنة الله في خلقه أن أنواع البلاء الذي يعم الناس إنما هو آثار للأعمال ونتائج للسلوك الفاسد. وتبقى هذه السنة ثابتة سارية المفعول في صيرورة التاريخ وحركته؛ لأن الفعل الحضاري تنسحب عليه دلالات كثيرة وكبيرة من أهمها اجتثاث واقتلاع مظاهر الفساد والانحراف والشرك والضلال وأنواع الظلم كلها. كل هذه الانحرافات هي عوامل كبرى لسقوط الحضارات وزوالها، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ...﴾ (الروم: ٤١-٤٢).

فهناك ارتباط عميق بين أحوال حياة الناس وأوضاعهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية عامة وبين أفعالهم وسعيهم في الأرض. وكلما فسدت قلوبهم وعقائدهم، فسدت أخلاقهم، وبالتالي تنهار أعمالهم،

ويعم بها الفساد في الأرض، وتتفشى شرارته في البر والبحر. وما ذكر القرآن الكريم أمة أصيبت بالدمار والهلاك إلا وذكر سببه وموجباته التي أدت إليه وكيفية انحراف هذه الأمة وفسوقها عن أمر ربها، حتى تكون عبرة لمن يعتبر، وأن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم وإنما هو بما كسبت أيديهم.

كما أن باعث الدمار والهلاك لا يكون فساداً فردياً بل هو الفساد الجماعي والظلم العام، الذي يشمل العلاقات الإنسانية الشخصية والعلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، بل يشمل كذلك مستوى الاعتقاد والإيمان الذي يسوده الظلم والشرك بالله، والتناقض الداخلي بالتظاهر بالإيمان والعمل الصالح واستبطان غيره. ومعنى هذا أن ظلم الإنسان لنفسه بفساده العقيدي والعملي والأخلاقي ليس مدعاة للهلاك وسبباً للدمار والسقوط مادام قاصراً على الأفراد والأمة محتفظة بكيان استمراريتها وصلاحية ديمومتها وبقائها، ولكن إذا تجاوز الظلم والفساد مستوى الأفراد الذين لا يشكلون القاعدة أو الظاهرة العامة إلى مستوى دائرة الأمة، أخذت تلك الأمة في الهبوط من علياء الكرامة والعز إلى درك الذل والهوان حتى تحين ساعة الدمار والسقوط[1]. فتكون نهايتها المحتومة .

---

(١) انظر محمد هشور، سنن القرآن في سقوط الحضارات، ضمن موقع: منتدى القرآن(montadalquran.com).

- إبراهيم، عليه السلام، وبداية الدعوة:

إبراهيم، عليه السلام، بن تارح، مولده بأرض الكلدانيين - وهي أرض بابل وما والاها- وهو الصحيح المشهور عند أهل السير والتواريخ والأخبار[1].

ثم ارتحل قوم إبراهيم، عليه السلام، إلى أرض الكنعانيين، وهي بلاد بيت المقدس، فأقاموا بحران - وهي أرض الكلدانيين في ذلك الزمان وكذلك أرض الجزيرة والشام - وكانوا يعبدون الكواكب السبعة.. والذين عمروا مدينة دمشق كانوا على هذا الدين، يستقبلون القطب الشمالي ويعبدون الكواكب السبعة بأنواع من الفعال والمقال، ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكل لكوكب منها، وكانوا يقيمون لها أعياداً ويقدمون القرابين.

وكان أهل حران وكل من كان على وجه الأرض كفاراً سوى إبراهيم الخليل وامرأته وابن أخيه لوط عليهم السلام.

وكان الخليل، عليه السلام، هو الذي أزال الله به تلك الشرور وأبطل به ذلك الضلال، فإن الله سبحانه وتعالى آتاه رشده في صغره، وابتعثه رسولاً واتخذه خليلاً في كبره[2].

وهذا أيضاً ملمح آخر نستشفه من خلال سيرة إبراهيم الخليل، عليه السلام، وهو أن الله عز وجل حينما يشاء إعادة البناء الحضاري لأمة من الأمم

---

(١) انظر ابن عساكر، تاريخ دمشق.
(٢) صحيح قصص الأنبياء، ص ١٠٣.

ينتقي منها أخيرهم وأفضلهم على الطريق المثلى في الخلق والتمثل العالي للفضيلة. فلقد آتى الله عز وجل إبراهيم، عليه السلام - قبل أن يكلفه بالرسالة- رشده واستقامته على البر والتقوى وهو في الصغر، وهيأه بكل الأسباب والوسائل الحضارية، التي تمكنه وتؤهله للإصلاح والتغيير المنشود في الكبر.

وإذا عدنا إلى سيرة نبينا محمد ﷺ نجد الصورة نفسها تتكرر حينما آتاه الله رشده في الصغر، والاستقامة في شبابه، وأبعده عن كل سمر يسمره الشباب، أو ملهى يلهوه المراهقون.

فصورة السقوط الحضاري للأمم ودمار الشعوب الضالة والمفسدة ليس معناه الإبادة الشاملة للحياة داخل هذه الأمة أو تلك، بل لابد من الإبقاء على عناصر القوة والأمانة والبناء في تلك الأمة. وتعد هذه العناصر بمثابة حجر الأساس الذي لا تُقتلع جذوره وإن سقطت جدرانه.

من هنا فإن إبراهيم، عليه السلام، هو الحجر الأساس، الذي بقي صامداً أمام اهتزازات الفساد، وبه أعاد الله لقومه وأمته مجد عزها وقوة حضارتها، قال تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ (الأنبياء: ٥١).

إن دعوة إبراهيم، عليه السلام، كانت مبنية على العلم اللدني، الذي به أنار طريق دعوته لذويه وقومه، فكان أول المدعوين أبوه، الذي كان يعبد الأصنام كما أخبر عن ذلك الحق سبحانه: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ

كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ... ﴾ (مريم: ٤١-٤٨).

لقد حاور إبراهيم، عليه السلام أباه، ودعاه إلى الحق بألطف عبارة وأحسن إشارة، فحاول أن يقنعه بأدلة لا ينكرها عقل ولا يبطلها نظر حين قال له: ﴿ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴾.

لقد امتلك إبراهيم، عليه السلام، أدوات الحوار الناجح[1] في مخاطبته لوالده؛ وأهم هذه الأدوات توفره على العلم اللازم والضروري بقصد الإقناع والحجة بأقصر الطرق وبأقل كلفة.

وهو حوار حضاري يحيلنا على الأدب العالي بين طرفي الحوار، وخاصة في بناء علاقات أسرية رائعة يسودها الاحترام المتبادل بين الأبناء وآبائهم. حتى في حالة الاختلاف العقيدي. فيجدر بالأبناء المهتدين أن يرفقوا بآبائهم الضالين، وأن يخفضوا لهم جناح الذل من الرحمة، وسيكون ذلك لا محالة أسلوباً رائعاً في رد الضال إلى الهدى؛ لأن بناء العلاقات الجيدة سبيل إلى بناء حياة جيدة.

فلما عرض إبراهيم الرشد والهدى على أبيه لم يقبل أبوه نصيحته، وردها عليه بل هدده وتوعده ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾.

---

(١) انظر شروط الحوار الناجح، في ياسر براهمي، فقه الخلاف بين المسلمين، ط٢ (الإسكندرية: دار العقيدة للتراث) ص ٣٨؛ محمد راشد ديماس، فنون الحوار والإقناع، ط ١ (بيروت: دار ابن حزم، ١٩٩٩م).

وبالرغم من إصراره وبقائه على ضلالته قابله إبراهيم بالسلام والرحمة، فقال له ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾ قال ابن عباس وغيره: أي لطيفاً في أن هداني لعبادته والإخلاص له.. واستغفر له، كما وعده، فلما تبين له عداوته لله تبرأ منه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ (التوبة:١١٤).

- طريق الحضارة ضد معاول الهدم:

بُعث إبراهيم، عليه السلام، في أمة طغت وأغرقت في عبادة الأصنام، وكانت مهمته صعبة في تحويل العقول والقلوب إلى عبادة الله وحده لا شريك له، لتمكن حب هذه الأوثان في أفئدهم، قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (الشعراء:٦٩-٨٣).

إنها دعوة حضارية صريحة وخطاب تنموي هادف يوجهه نبي الله إبراهيم، عليه السلام، إلى أبيه وقومه ليقتلع من كيالهم ووجودهم سبيل الغي والضلال، ويهدم أنواع الظلم والشرك، كل ذلك بحوار هادئ يملأه العطف النبوي المفعم بالرحمة الربانية لعباد الله.

إن الجهل والضلال سبيلان إلى الضعف والانكسار والانهزامية؛ والتذلل لأصنام لا تنطق ولا تسمع قمة في الجهل، وتعطيل للقدرة العقلية والفطرة الندية، وهما سبيلا الخلاص من كل تخلف وترد. لقد طرق إبراهيم، عليه السلام، قلوب القوم وعقولهم وجادلهم بالتي هي أحسن عسى أن يحدث الله بعد ذلك رشداً، ويبدل حالهم من سوء إلى نور يضيء أفئدتهم نحو عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد.

واتخذت دعوته إلى قومه عدة أساليب ومناهج يُرجى من خلالها الهدى واتباع طريق الحق، فبعد أن حاول بكل أساليب الحوار الممكنة مراجعة قومه، توجه إلى أوثانهم، وهم ينظرون ويشهدون، ثم قال: ﴿... فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ...﴾ (الصافات:٨٣-٩٦).

لقد أنكر على قومه عبادة الأوثان وحقرها وتنقصها بحضورهم بغية إقناعهم بضلالهم، وتيه عقولهم، وما كانت حجتهم في هذا الغي إلا اتباع أسلافهم وآبائهم، قال تعالى:﴿...هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (الشعراء:٧٢-٧٤)، وأجابهم إبراهيم، عليه السلام: ﴿... بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ (الأنبياء:٥٦).

وانتهج إبراهيم، عليه السلام، أيضاً أسلوب التهكم والازدراء بقومه حين ذهب إلى أوثانهم وكسرها عن آخرها إلا ما كان من تمثال كبير اعتبروه كبير الآلهة، لم يكسره بل تركه على حاله، بغية جعلهم في وضع من الإذلال والسفه لمعتقداتهم الزائفة وعقولهم المخالفة لمبدأ الحق والرشد: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٩١ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ۝٩٢ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِٱلْيَمِينِ﴾، ثم اتبع ذلك: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ...﴾ (الأنبياء:٥٨). ولما رأوا ذلك «قالوا من جهلهم وقلة عقلهم وكثرة ضلالهم وخبالهم»[١]: ﴿...مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥٩ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ۝٦٠ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ (الأنبياء:٦٠-٦١).

إن التأسيس الحضاري الذي تطلع إليه إبراهيم، عليه السلام، ينبني على إعادة بناء العقول بناءً ينسجم مع الفطرة السليمة التي تنساق في اختياراتها إلى الموضوعية والعقلانية، بناءً علمياً لا يختلف مع مقاصد الحياة والعمارة، وبالتالي يمنح الإنسان الذي امتلك أدوات المعرفة ﴿... ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ ...﴾ (الإسراء:٣٦) كيانه ووجوده، وصفاء الفطرة: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ (الروم:٣٠) وأداءه الفعلي في البناء النافع وإحقاق الحق وإزهاق الباطل، وبالتالي إدراك المعنى والغاية

(١) صحيح قصص الأنبياء، ص ١١١.

الصحيحة من الخلق والاستخلاف، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون:١١٥).

أراد إبراهيم، عليه السلام، أن يجعل من إنسان قومه ذلك الإنسان الذي يجنح نحو العقيدة الجامعة، التي «تجمع بين الدنيا والآخرة، فلا تحقر المادة لا في الصورة النظرية - باعتبارها هي التي يتألف منها هذا الكون الذي نعيش فيه ونتأثر به ونؤثر فيه - ولا في صورة الإنتاج المادي، لأن هذا الأخير من مقومات الحياة، ولكنه لا يعتبر فيها القيمة العليا التي تهدر في سبيلها خصائص الإنسان ومقوماته، ويفقد بسببها حريته وكرامته وعرضه، وصدق الله العظيم حين قال: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ (القصص:٧٧). كما أن العقيدة تعترف بحقوق الجسد ومتطلبات الروح، الاعتراف بحق الجسد لا يستلزم إنكار الروحانية، ولا الحد من إشراقاتها إذ لا يوصف بالشمول دين ينكر الجسد، كما لا يوصف به دين ينكر الروح»[١].

وأراد أن يجعل من قومه أمة تمتلك خصائص الفاعلية والوسطية، لقد خاطب عقول قومه قبل أن يخاطب قلوبهم؛ لأن في خطاب العقل إحياء لنور القلب، فأراد أن ينتزع من عقولهم تلك الأكنة التي غلقت أفئدتهم وأعمت بصيرتها عن إبصار الحق.

---

(١) الواعي، الحضارة الإسلامية، ص ٤٧٠.

إن الصورة الحقيقية للبناء الحضاري تتشكل في إعمار الأرض بالنافع ودفع الضار، قال تعالى: ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (البقرة:٦٠)، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ (البقرة:١٦٨)، وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (البقرة:١٧٢).

وهذا هو منهج جميع الأنبياء والرسل، جاءوا بدعوة واحدة وعقيدة واحدة تتسم بالواقعية، تدعو الناس لعمل الدنيا والآخرة، وتؤسس النظام الاجتماعي من منطلق الأخلاق والقيم والعدل والمساواة، لا من منطلق العتو والفساد في الأرض واتباع الأهواء . ولقد جمع هذه المعاني النبيلة للعقيدة الإسلامية النبي محمد ﷺ حينما أجاب فأوعى، قائلاً: « قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ فَاسْتَقِمْ»[1].

- رفع قواعد البيت الحرام حضارة خالدة:

إنها الهجرة النبوية الكريمة، هجرة إبراهيم الخليل إلى أرض الله في البقعة المطهرة. لقد هجر قومه حين خذلوه وأبوا أن يتبعوه، وأصروا على منكرهم إصراراً، حينها لم يجد إبراهيم، عليه السلام، بدأً من الرحيل في الوقت «الذي كانت فيه امرأته عاقراً لا يولد لها و لم يكن له من الولد أحد، سوى

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في كتاب الإيمان.

ابن أخيه لوط بن هاران بن آزر. وهبه الله تعالى بعد ذلك الأولاد الصالحين وجعل في ذريته النبوة والكتاب، فكل نبي بعث بعده فهو من ذريته، وكل كتاب نزل من السماء على نبي من الأنبياء من بعده فعلى أحد نسله وعقبه، خلعة من الله وكرامة له، حين ترك بلاده وأهله وأقرباءه وهاجر إلى بلد يتمكن فيه من عبادة ربه عز وجل، ودعوة الخلق إليه. والأرض التي قصدها بالهجرة هي أرض الشام»[1] وهي الأرض التي قال فيها عز وجل: ﴿...ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:٧١)، قاله أبو العالية وأبي بن كعب وقتادة وغيرهم.

إنها هجرة مماثلة لهجرة النبي محمد ﷺ من مكة إلى المدينة ليؤسس دولة الحق، عاصمتها المدينة المنورة، ومركز قيادة عقيدتها مكة المكرمة، التي بنى قواعدها إبراهيم، عليه السلام، وابنه إسماعيل.

فعن ابن عباس، رضي الله عنهما: «**أَوَّلَ مَا اتَّخَذَ النِّسَاءُ الْمِنْطَقَ مِنْ قِبَلِ أُمِّ إِسْمَاعِيلَ، اتَّخَذَتْ مِنْطَقًا لَتُعَفِّيَ أَثَرَهَا عَلَى سَارَةَ، ثُمَّ جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهِيَ تُرْضِعُهُ حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ الْبَيْتِ، عِنْدَ دَوْحَةٍ فَوْقَ زَمْزَمَ، فِي أَعْلَى الْمَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَّى إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَقَالَتْ. يَا إِبْرَاهِيمُ، أَيْنَ تَذْهَبُ**

---

(١) صحيح قصص الأنبياء، ص ١١٨.

وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِي الَّذِي لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلا شَيْءٌ؟ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا وَجَعَلَ لا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا.. فَقَالَتْ لَهُ: أَاللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: نَعَمْ.. قَالَتْ: إِذَنْ لا يُضَيِّعُنَا. ثُمَّ رَجَعَتْ.

فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ، حَيْثُ لا يَرَوْنَهُ، اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلاءِ الْكَلِمَاتِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: رَبِّ (إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ) حَتَّى بَلَغَ (يَشْكُرُونَ).

وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ، حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى، أَوْ قَالَ: يَتَلَبَّطُ.. فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدَتِ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الأَرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتِ الْوَادِيَ تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا، فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَهَبَطَتْ مِنَ الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْوَادِيَ رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الإِنْسَانِ الْمَجْهُودِ، حَتَّى جَاوَزَتِ الْوَادِيَ، ثُمَّ أَتَتِ الْمَرْوَةَ فَقَامَتْ عَلَيْهَا وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا، فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا.. فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا، فَقَالَتْ: صَهٍ، تُرِيدُ نَفْسَهَا، ثُمَّ تَسَمَّعَتْ، فَسَمِعَتْ أَيْضًا، فَقَالَتْ: قَدْ أَسْمَعْتَ إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غِوَاثٌ، فَإِذَا هِيَ بِالْمَلَكِ عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ، فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ، أَوْ قَالَ: بِجَنَاحِهِ، حَتَّى ظَهَرَ الْمَاءُ فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ: بِيَدِهَا هَكَذَا، وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنَ الْمَاءِ فِي سِقَائِهَا وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَ مَا تَغْرِفُ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَرْحَمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ، أَوْ قَالَ: لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ الْمَاءِ لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا.. قَالَ: فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فَقَالَ لَهَا الْمَلَكُ: لا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ، فَإِنَّ هَا هُنَا بَيْتَ اللَّهِ يَبْنِي هَذَا الْغُلامُ وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَهْلَهُ.. وَكَانَ الْبَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنَ الأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ تَأْتِيهِ السُّيُولُ فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ.. فَكَانَتْ كَذَلِكَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمَ، أَوْ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ جُرْهُمَ مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ، فَنَزَلُوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ، فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلَى مَاءٍ، لَعَهْدُنَا بِهَذَا الْوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ، فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا[1]، أَوْ جَرِيَّيْنِ، فَإِذَا هُمْ بِالْمَاءِ، فَرَجَعُوا فَأَخْبَرُوهُمْ بِالْمَاءِ فَأَقْبَلُوا.. قَالَ: وَأُمُّ إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ الْمَاءِ.. فَقَالُوا: أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكِ؟ فَقَالَتْ: نَعَمْ، وَلَكِنْ لا حَقَّ لَكُمْ فِي الْمَاءِ.. قَالُوا: نَعَمْ ...»[2].

إن هذا الحديث النبوي الشريف يترسم خطى ومراحل هجرة إبراهيم، عليه السلام، إلى الأرض المباركة برفقة زوجته ووليدها إسماعيل، عليه السلام، ومقامهما بعد طول مدة في هذا المكان المقدس، وفي هذه البقعة المباركة، كل ذلك بإيحاء من الله عز وجل الذي شاء لإبراهيم، عليه السلام، أن يؤسس معالم حضارة الأمة المؤمنة في ذلك المكان، فهيأ له أسباب ذلك، المادية والمعنوية: زوجة تقية، وولداً صالحاً، وأرضاً طيبة، منحها الخالق

(١) هو الرسول أو الأجير.
(٢) أخرج هذا الحديث بطوله البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب ٩٠٦.

عز وجل أسباب العمارة من ماء وزرع وضرع، وأعمرها بصالح القوم الذين كانوا بجوار ماء زمزم.

لقد تهيأت أساليب العيش وشروط إقامة الحياة الاجتماعية من إعمار وإسكان واقتصاد، وعلاقات اجتماعية وأسرية في تلك البقعة المباركة، وهو نصيب مهم من الحياة الدنيا، الذي وصفه الله عز وجل في كثير من آياته: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ (القصص:٧٧).

أما النصيب الآخر من الحياة الحضارية فيتجلى في بناء عقيدة الناس تجاه معبود واحد وخالق واحد ومدبر واحد.

وتحقق هذا الجزء من البناء الحضاري حينما جاء الأمر الرباني لإبراهيم، عليه السلام، بتخليص الناس من جور الشرك والضلال إلى عدل التوحيد والهدى، حين قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة:١٢٤-١٢٦).

كما تحقق ببناء الكعبة قبلة المسلمين، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (البقرة:١٢٧-١٢٩).

وفي الخبر الذي رواه ابن عباس، رضي الله عنهما، ورد أن إبراهيم، عليه السلام، قال: «**يَا إِسْمَاعِيلُ إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ.. قَالَ: فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ.. قَالَ: وَتُعِينُنِي؟ قَالَ: وَأُعِينُكَ.. قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ هَا هُنَا بَيْتًا.. وَأَشَارَ إِلَى أَكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا.. قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالْحِجَارَةِ وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ الْبِنَاءُ جَاءَ بِهَذَا الْحَجَرِ، فَوَضَعَهُ لَهُ، فَقَامَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَبْنِي وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الْحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.. قَالَ: فَجَعَلا يَبْنِيَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ الْبَيْتِ وَهُمَا يَقُولانِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾**»[1].

إن بناء البيت على يد إبراهيم، عليه السلام، يؤكد وحدة الدين الإسلامي، الذي اشترك في تبليغه الأنبياء والرسل جميعهم، وبنى قواعده إبراهيم، عليه

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء.

السلام، وأكمل لبنته محمد ﷺ خاتم الأنبياء والرسل، ويشهد له قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ أي أن الأديان السماوية كلها هي إسلام واحد، وتوجه بالعبودية لمعبود واحد، لا إله إلا هو وحده لا شريك له.

والآيات القرآنية تنطق بهذه الحقيقة الربانية لهذا الدين الإسلامي الذي نظم درر عقده الأنبياء والرسل كلهم، قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٠-١٣٣).

إن المعاني الحضارية كلها تجدد بعثها على يد إبراهيم، عليه السلام، وتحققت صورها بالقنوت لله عز وجل وشكر أنعمه الدنيوية والأخروية، ولذلك وصفه القرآن الكريم بوصف عظيم حين قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (النحل: ١٢٠-١٢٢).

إن بناء الكعبة المشرفة يحمل أكثر من دلالة، وفي مقدمة ذلك:

- توحيد كلمة المسلمين نحو عبادة الله، عز وجل .

- تشكل الكعبة الشريفة معالم الحضارة، المادية والمعنوية.

- الكعبة المشرفة هي مكان المؤتمر العقيدي الذي يحج إليه المسلمون من كل فج عميق، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۝ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (الحج:٢٦-٢٧).

هذه هي الحضارة الإبراهيمية، التي جدد بعثها الخليل إبراهيم، عليه السلام، ودعا إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فجعل الله الكعبة — التي رفع قواعدها إبراهيم وابنه إسماعيل- مركزاً للأرض، ليتجه نحوها كل إنسان مسلم من أنحاء الكرة الأرضية لأجل أداء الصلوات الخمس على مرور الزمن ومدار الكرة الأرضية، وهي صلاة مناجاة بلغة واحدة وعقيدة واحدة، وأداء موحد، وتوجه واحد لله سبحانه وتعالى.

فاستمرار الصلة بين العبد وربه هو استمرار لمد حضاري لا تهتز أركانه إلا بقطع هذه الصلة، أو بقطع إحدى أوصال معانيها وغاياتها؛ لأن من يحمل غاياتها تحقيق الطمأنينة وإشاعة الأمن والسلام بين أهل الأرض، وهذا أقصى مطلب، وأفضل غاية يمكن للإنسان أن يبتغيها لا سيما في عصر الفتن الضاربة في الأرض.

الفصل الثالث
الامتدادات الحضارية للإسلام

إن حديثنا عن الامتدادات الحضارية للإسلام نقصد به أن الإسلام جاء ليمد جسور البناء الحضاري، الذي تم تشييده في عهد الأنبياء والرسل قبل بعثة محمد ﷺ لبنة الختم التمام؛ هذه اللبنة التي وُضعت خُططها وتصاميمها في عهد آدم، عليه السلام، وكشف تعاقب الأنبياء من بعده تجديد وتثبيت حجر أساسها، فأعاد بناءها وأرسى قواعدها إبراهيم، عليه السلام، وسد ثغرة لبنتها محمد ﷺ، الذي يقول: «**إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إلا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ**»[1] .

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المناقب.

المبحث الأول
البعثة النبوية ولبنة التمام

لقد أشرقت نور الهداية من جديد على الإنسانية جمعاء حين بُشرت الجزيرة العربية بمولود أضاء مشارق الأرض ومغاربها، وارتج لمولده إيوان كسرى وسقطت شرفاته، وخمدت نيران فارس التي لم تخمد لمدة ألف عام، كما رواه البيهقي وأبو نعيم وابن عساكر.

إنه النبي محمد بن عبد الله ﷺ الذي كلف بالمهمة الصعبة بعد سلسلة من الرسالات والنبوات، التي تشكل حلقات متصلة من البناء الحضاري، وسنناً كونية تعاقبت على مر الدهور والعصور من البناء والتشييد العقيدي والاجتماعي للإنسان.

فكلما أصاب أمة من الأمم خواء روحي، وتعمقت فيهم البلوى، وابتعد الإنسان عن طريق الهدى والحق، وجانب صفاء الفطرة التي جُبل عليها، بعث الباري سبحانه من يرد الناس إلى صوابهم ويضيء طريق هدايتهم، حفظاً لكرامة هذا الإنسان الذي يطغى ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ۝٨ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ۝١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ (العلق:٦-١٢).

والأرض حين سلبت حياتها الروحية وتجردت من ازدواجيتها في الخلق، مادة وروحاً، تجدد البعث النبوي بنزول آيات الوحي الكريم على أكرم

المرسلين وأعظم المخلوقين، ليقرع من جديد جرس التغيير في مجتمع سادت في أرجائه جاهلية جهلاء وضلالة عمياء، ليعيد إلى الحياة روحها وتوازنها، ويرمم معالم الحضارة النبوية بروح القرآن الكريم، الذي جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

- القرآن الكريم وسر التأثير:

إن سر تأثير القرآن الكريم في نفوس وقلوب الناس جلي وفريد، فهو كلام الله تعالى، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فسحره ونفاده يتجلى في كونه كلاماً موحى، ليس من نظم البشر، وإنما هو قانون سماوي تقشعر لسماعه جلود الذين يخشون ربهم وتلين وتسكن إليه، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ (الزمر:٢٣).

فالقرآن الكريم مصدر معرفة وتربية، وهو مصدر اليقين في ماهية نشأة الإنسان ووظيفته الكونية في الاستخلاف والإعمار والعبادة، وهو طريق الهداية، للجن والإنس على حد سواء، قال تعالى: ﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ (الجن:١-٢).

إن عمق تأثير القرآن الكريم في النفوس يؤكد قوة الوحي في تغيير واقع الناس، من الظلمات إلى النور، ولشدة تأثيره يقول تعالى في وصف هذه القوة وهذا النفاذ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر: ٢١). وهي صورة تمثل «الحقيقة الماثلة الكائنة لهذا القرآن، فإن فيه روعة وثقلاً وأثراً مزلزلاً لا يثبت له شيء يتلقاه بحقيقته، فإن اللحظات التي يكون فيها الكيان الإنساني متفتحاً لتلقي شيء من حقيقة القرآن يهتز فيه اهتزازاً ويرتجف ارتجافاً، ويقع فيه من التغيرات والتحولات ما يمثله في عالم المادة فعل المغنطيس والكهرباء بالأجسام، أو أشد، والله خالق الجبال ومنزل القرآن»[1].

ومن السيرة النبوية شواهد كثيرة لهذا التأثير والسحر الذي يحدثه القرآن في النفوس حتى مع الكفار والمرتدين:

لما قرأ النبي ﷺ القرآن الكريم على المغيرة بن شعبة ارتعد واقشعر بدنه والهد جبروته واحتار في أمره فولى مسرعاً إلى قومه، فسألوه كيف وجد ما يقوله محمد ﷺ فأجاب: «ماذا أقول؟ فوالله ما منكم رجل أعرف بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه أو بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه يعلو ولا يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته»[2].

---

(١) الواعي، الحضارة الإسلامية، ص ٦٥٠.

(٢) سيرة ابن كثير، تحقيق مصطفى عبد الواحد، ١/٤٩٩.

وفي السياق نفسه يروي ابن كثير عن البيهقي من حديث الزهري قال: «أن أبا جهل وأبا سفيان والأخنس بن شريق، خرجوا ليلة ليسمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً ليستمع منه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له، حتى إذا أصبحوا وطلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق، فتلاوموا وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً، ثم انصرفوا، حتى كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حيث إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق، فقالوا لا نبرح حتى نتعاهد على ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا»[١].

إن الامتدادات التأثيرية للقرآن الكريم خالدة وباقية بقاء الحياة، بقاء معجزته وحفظه وقوة بيانه ولفظه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

ولعل أول تأثير زمني سجل في التاريخ الإسلامي هو بداية نزول الوحي على محمد ﷺ حينما قال له جبريل ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ وحينما نزلت عليه أيضاً سورة المدثر، فذهب إلى زوجه خديجة يرتعد ويرتعش من شدة ما سمع طالباً منها أن تدثره وتغطيه وتسانده في ثقل ما نزل عليه[٢].

---

(١) المصدر نفسه، ١٤/٥٠٥.

(٢) انظر كتب السيرة : سيرة ابن هشام، الشفا للقاضي عياض، المواهب اللدنية للقسطلاني.

وتتجلى هذه الامتدادات التأثيرية في العهود التي تلت زمن البعثة النبوية، وتجاوزت حدود الزمان والمكان لتشمل بعض أفئدة أهل الديانات الأخرى في عصرنا هذا، فكان ذلك سبيلاً إلى اعتناق الكثيرين منهم الدين الإسلامي، كالباحث المشهور «رجاء جارودي» وغيره كثير. وفي هذا السياق يذكر الأستاذ محمد حنيف، الإيراني المسلم، الباحث بالموسوعة الفقهية بالكويت، عن واقعة عاشها بنفسه، يقول:

«ذهبت إلى لندن لإلقاء محاضرة في مسجد لندن، فوضع المكلفون بتنظيم المحاضرة شريطاً من القرآن الكريم في مكبر الصوت لجميع الناس، وما أن قرئ القرآن وسمعه الناس حتى توافد على المسجد جموع من الإنجليز، وجلسوا يستمعون القرآن كأن على رؤوسهم الطير، وما أن جاء وقت المحاضرة ونظرت إلى الناس فرأيت المسجد قد غص بالناس، حتى فرحت، ولكن بمجرد أن أغلق مكبر الصوت وانتهت القراءة، وبدأت في المحاضرة حتى رأيت الناس ينصرفون، فعجبت من ذلك ويئست، وبعد فراغي من محاضرتي سألت إمام المسجد عن هذه الظاهرة فقال: لا تحزن، ليس في الأمر شيء، فقال: ما نكاد نفتح مكبر الصوت في قراءة القرآن الكريم حتى يتوافد الناس من الإنجليز على المسجد، ويجلسون كما رأيت خاشعين، رغم أنهم لا يفهمون لغة القرآن ولا لفظه، ولكنه يأخذهم بسحر فيه وروعة في لفظه ونظمه وموسيقاه فإذا انتهت التلاوة قاموا. فقلت: سبحان الله، هذه روعة الكتاب العزيز وقدسية الآيات تنفذ إلى أعماق الناس، وإن كان اللسان غير

اللسان واللغة غير اللغة ولكن الخالق هو المتكلم والآيات، والخلق عباده، والكون ملكه واللغات تدبيره وأمره»[1].

- خصائص نبوة محمد ﷺ:

إن حقيقة النبي محمد ﷺ فصلت في دقائقها كتبُ الحديث النبوي الشريف وكتب السيرة العطرة، التي بحثت وجمعت أنواع السنة القولية والفعلية والتقريرية وكذلك صفاته وشمائله وخصائصه ﷺ من مولده إلى مماته.

بل اهتمت كتب السيرة أيضاً بكل الأشياء المحيطة به ﷺ من أشخاص وبقاع وأحداث وأزمان، كالحديث عن أزواجه الطاهرات، وصحابته الكرام، رضوان الله عليهم، وغزواته وكتّاب الوحي، وشعرائه، ومؤذنيه، ورسائله، وكتبه، والوفود التي وفدت عليه...

لقد اصطفاه ربه على الخلائق كلها وخصه بمعجزة القرآن الكريم . فهو صاحب النبوة الخاتمة والرسالة المتوجهة للعالمين و«إمام المرسلين، وقرة عين كل الأصفياء، وسلطان جميع المرشدين، وزبدة كل المختارين والمقربين. فهو أعظم آية في كتاب الكون الكبير، وأعظم اسم في ذلك القرآن الكبير، وبذرة شجرة الكون وأنوار ثمارها وشمس قصر هذا العالم، والبدر المنور لعالم الإسلام، والدال على سلطان ربوبية الله، والكشاف الحكيم للغز الكائنات، هو سيدنا محمد ﷺ»[2].

---

(١) الواعي، الحضارة الإسلامية، ص ٦٥٤.

(٢) النظرة القرآنية للإنسان من خلال رسائل النور، ص ١٣٦.

نقل الحافظ جلال الدين السيوطي من كلام الإمام أبي الحسن الماوردي في كتاب «أعلام النبوة» قوله : «لما كان أنبياء الله صفوة عباده وخيرة خلقه، لما كلفهم بالقيام بحقه والإرشاد لخلقه، استخلصهم من أكرم الأصلاب، واجتباهم بمحكم الأواصر. فلم يكن لنسبهم من قدح، ولمنصبهم من جرح، لتكون القلوب لهم أصفى، والنفوس لهم أرضى، فيكون الناس إلى إجابتهم أسرع، ولأوامرهم أطوع، وإن الله استخلص رسوله ﷺ من أطيب المناكح، وحماه من دنس الفواحش، ونقله من أصلاب طاهرة إلى أرحام منزهة».

يقول ابن عباس، رضي الله عنهما، في تأويل قوله تعالى : ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ (الشعراء:٢١٩) «أي تقلبك من أصلاب طاهرة من أب بعد أب إلى أن جعلك نبياً»[١] فكان نور النبوة ظاهراً في آبائه، ثم لم يشركه في ولادته من أبويه أخ ولا أخت، لانتهاء صفوهما إليه، وقصور نسبتهما عليه، ليكون مختصاً بنسب جعله الله للنبوة غاية ولتفرده نهاية، فيزول عنه أن يشارك فيه ويماثل فيه، فلذلك مات عنه أبواه في صغره. فأما أبوه فمات وهو حمل، وأما أمه فماتت وهو ابن ست سنين، وإذا اختبرت حال نسبه وعرفت طهارة مولده علمت أنه سلالة آباء كرام، ليس في آبائه مسترذل، ولا مغمور ومستذل، بل كلهم سادة قادة؛ وشرف النسب وطهارة المولد من شروط النبوة.

وكان آباؤه ﷺ ذوي أحلام فاخرة، وألباب وافرة، وأخلاق زكية، وهمم سنية.

---

(١) أخرجه القاضي عياض عن ابن عباس في الشفا، ٨١/١.

وقد ألف الحافظ شيخ الحديث جلال الدين السيوطي ستة تــآليف في إيمان أبويه وأجداده ﷺ ونجاتهم، وإن كان كل واحد منهم خير أهل زمانه ووردت أحاديث تنص على إيمان بعضهم، وأنهم كانوا على ملــة إبــراهيم كخزيمة وإلياس ومضر[1] ومعد[2] وعدنان وأبيه.

قال ابن إسحاق، بعد ذكر نسبه ﷺ: فرسول الله ﷺ أشرف ولد آدم حسباً وأفضلهم نسباً من قبل أبيه وأمه ﷺ[3].

وفي شرف النبي ﷺ يقول ابن سبع في «شفاء الصدور»: «وهو الــنبي العربي الأبطحي الحرمي الهاشمي القرشي، نخبة بني هاشم، المختار من سليل الحواضن وألباب خير المعادن، المطهر، المنتخب من أطيب بطون العــرب، وأعرفها في النسب، وأشرفها في الحسب، ومن أنضرها عوداً، وأفــصحها لساناً، وأوضحها بياناً، وأرجحها ميزاناً، وأصحها إيماناً، وأعزهــا نفــراً، وأكرمها معشراً، من قبل أبيه وأمه...»[4].

---

(١) قال ابن سعد: أخبرنا خالد بن خداش، أخبرنا عبد الله بن وهب قال: أخبرني ســعيد بن أبي أيوب عن عبد الله بن خالد قال، قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا مضر فإنه كان قد أسلم»، الطبقات الكبرى. (بيروت: دار صادر، ١٩٨٥م) ٥٨/١.

(٢) قال ابن سعد : أخبرنا هشام بن محمد بن السائب عن أبيه قال : ولد معد بن عدنان نزاراً، وفي ولده النبوة والثروة والخلافة... وأمهم معانة بنــت حوشــم ... وأخــوهم لأمهم قضاعة، وبعض النسابة يقول: قضاعة بن معد وبه كان يكنى معد.

- وذكر النبوة في خبر ابن سعد دليل على إيمان معد، انظر الطبقات، ٥٨/١..

(٣) سيرة ابن هشام، ٣/١.

(٤) انظره في كتاب سمط الجوهر الفاخر من مفاخر النبي الأول والآخر، ١٤٢/١.

- من تجليات بعثته ﷺ:

لما بلغ ﷺ أربعين سنة على الصحيح بعثه الله رحمة للعالمين ورسولاً إلى كافة الثقلين أجمعين. ثم لما كان في غار حراء في شهر رمضان أوحي إليه في اليقظة، وظهرت على يده الآيات البينات والمعجزات الباهرات ونزل عليه القرآن، وقامت حجته بواضح البرهان. ومن بالغ حكمته سبحانه وتعالى أن اختاره أمياً لا يكتب ولا يحسب ولا يدارس علماً ولم يطالع كتاباً، ولم يسافر قط في طلب علم، ولم يزل بين أظهر العرب يتيماً ضعيفاً مستضعفاً، وكان أول ما بدء به من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلاّ جاءت مثل فلق الصبح، وحبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء فيتعبد الليالي ذوات العدد، ويتزود لذلك، حتى جاءه الوحي وهو بغار حراء فنزلت عليه سورة ﴿ اقْرَأْ ﴾[1].

وكان أول من آمن به ﷺ زوجه خديجة بنت خويلد، رضي الله عنها، ثم آمن به بناته وعلي بن أبي طالب وكان صغيراً، ثم أسلم زيد بن حارثة، ثم دعا أبا بكر الصديق، رضي الله عنه، إلى الإسلام فأسلم على الفور، فكان أول من آمن إجماعاً بعد أهل داره ﷺ وعياله، ثم أدخل الله في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء حتى فشى ذكر الإسلام بمكة[2].

---

(١) انظر حديث بدء الوحي عند البخاري في الصحيح، باب بدء الوحي، الحديث رقم ٣.

(٢) انظر سيرة ابن هشام، ٢٥٣/١؛ وطبقات ابن سعد، ١٣٣/١.

وبعدها صدع ﷺ بما جاءه من الوحي والحق وامتثل لأمر ربه حين قال له ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الحجر:٩٤)، فلما صدع ﷺ برسالته ونبوته لاقى من العذاب والعناء ما لاقاه الأنبياء والرسل قبله.

فكان ﷺ يعرض نفسه على قبائل العرب ويطوف عليهم في منازلهم بعكاظ والمجنة وذي المجاز وفي المواسم، ويدعوهم إلى توحيد عبادة الله[1].

إنها محطات مثيرة ومشوقة تحكي كيف ظهر الإسلام ضعيفاً ثم صار قوياً حين تابع ﷺ دعوته إلى الناس، وجعل الإسلام يظهر ويعظم شأنه ويكثر المسلمون من النساء والرجال والولدان. ولما رأت قريش قوة منعة الإسلام والمسلمين بعثوا إليه ﷺ فجاءهم فسألوه وقالوا: إن كنت تطلب الشرف فينا فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا قد غلب عليك بذلنا أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك، فقال ﷺ: **«ما بي ما تقولون، ولكن الله بعثني رسولاً، وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم»**[2].

---

(١) لمزيد من التفصيل انظر ابن سيد الناس، عيون الأثر، ط٣ (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٢م) ١/١٨٧؛ أبو القاسم عبد الرحمن السهيلي، الروض الأنف، تحقيق طه عبد الرؤوف (المغرب: مطبعة الحاج بن شقرون) ٢/٧٦.

(٢) انظر سيرة ابن هشام، ١/٢٩٥.

ومثل ذلك حدث مع عقبة بن ربيعة حين سمع رسول الله ﷺ يقرأ قوله تعالى ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ (فصلت:١-٥)، فرجع إلى قومه وهم ينتظرونه فقال: «والله إني قد سمعت قولاً ما سمعت بمثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش: أطيعوني، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فقد أجابني بشيء والله ما هو بسحر ولا شعر ولا كهانة قرأ بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ حتى بلغ ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ (فصلت:١٢) فأمسكت فمه وناشدته الرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب فخفت أن يترل بكم العذاب»[1].

من خلال هذا السرد المختصر لبعض المحطات المهمة في مسيرة البعثة النبوية يتضح جلياً كم من التضحيات وكم من الأذى لاقى رسول الله ﷺ من كفار قريش لأجل إرساء قواعد البناء الحضاري لهذا الدين، وتثبيت دعائم القيم الإنسانية النبيلة، ثم منها إلى بناء دولة حضارية إسلامية حينما أعلن ﷺ الهجرة من مكة إلى المدينة، وجعل المدينة المنورة عاصمة الدولة الإسلامية، وكان بناء المسجد النبوي أول معلمة ولبنة حضارية يضعها عند هجرته ﷺ.

(١) سيرة ابن هشام، ٢٩٤/١.

لقد تميزت نبوته ﷺ بالاستقامة امتثالاً لأمر الله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ فتجلت هــذه الاستقامة في أفعاله وأحواله وأقواله حتى وصفه ربه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

إن أحقية المكانة الرفيعة والمميزة التي نالها أكرم الخلق سيدنا محمــد ﷺ بين سائر الأنبياء أهلته ليكون حاملاً للوحي الشامل والرسالة الخاتمة؛ لأنه ﷺ:

- هو أكمل من دل على جمال الله تعالى وكماله المطلق من خــلال لفت الأنظار إلى جمال الصنعة، وكمال الإبداع، فكان بذلك ملبياً لإرادة الله تعالى في إظهار ذلك الجمال وتنبيه الخلق لروعته.

- أكمل من أعلن جميع مراتب التوحيد، فلبى إرادة رب العــالمين في إعلان الوحدانية على طبقات المخلوقات، فكان بذلك أجلى مرآة وأصفاها لعكس محاسن جمال مالك العالم ولطائف حسنه.

- أكمل وأفضل من أحب الله تعالى وحببه إلى الخلق.

- أكمل مرشد للقرآن الكريم للجن والإنس أجمعين، فبإرشادهم عرفهم ما في خزائن الغيب المحجوب من كنوز مخفية وشوقهم إليها؛ وجلى أمــامهم معاني آثار صانع الكائنات ليمعنوا من خلالها النظر والتفكر والاعتبار؛ وحــل لهم لغز الوجود، فأجابهم عن الأسئلة المؤرقة والغامضة المحيرة للعقول؛ وبيّن لهم المقاصد الإلهية وسبل الوصول إلى مرضاة رب العالمين.

وبهذه الخصائص استحق الرسول ﷺ أن يكون بالبداهة أعظــم مــن استوفى مهمة الرسالة بالقرآن الكريم، وأداها في أسمى مرتبة وأبلــغ صــورة وأحسن طراز[١].

---

(١) انظر رسائل النور، النظرة القرآنية للإنسان، ص ١٥٠.

إن كمالات الحضارة الإسلامية في الإنسان المسلم تتجلى عندما نقتفي أثر الحبيب المصطفى ونتبع سنته المطهرة، ونتمثل مكارم أخلاقه، لقد تزين ﷺ بأحسن المحاسن، وتنعم بكمال العبودية لله ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ (الفتح:٢٩).

إن علاقة الرسالة المحمدية بالإنسان والكون هي علاقة تأسست وتتأسس على مر الدهور والأزمان على إنتاج الكمالات الفعلية والمعنوية على وجه الأرض لإعلاء شأن الإنسان، وتسخير الكون لأجل خدمته وخدمة البقاء النافع في الأرض﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ (الرعد:١٧).

هذه هي روح الحضارة الإسلامية، فلولا هذه الروح الزكية لسقطت الموجودات: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ (الإسراء:١٦).

فبرسالته ونبوته ﷺ صار للحياة معنى وغاية ومقصداً، وأصبح للعلاقات بين الأحياء معان إيجابية نقلتها من العداوة والتصادم إلى الأخوة والتحابب. وبالجملة فالرسالة المحمدية ارتفعت بالإنسان من درجة الحيوانية

والعجز والفقر، وغـــيرت نظرته إلى الزمن، وهيأته للخلافة والارتقـــاء إلى أعلى المراتب في سلم الموجودات، فنقلته من طور البداوة إلى طور الحضارة.

انتقل أقوام الجزيرة العربية من حياة بدائية سادها التعـــصب للعـــادة والعناد والخصام ومفاسد الأخلاق إلى حياة تنبع بالحيوية والهدوء والـــتفهم ومكارم الأخلاق حتى صارت أقواماً مؤسسة لعالم التحضر والتمدن لمن جاء بعدهم من الأمم.

ولقد انبهر بهذا الإنجاز الحضاري لهذا النبي الكريم العديد من علمـــاء ومفكري وأدباء الغرب، نذكر منهم الأديب الروسي «تولستوي» الذي قال في مقالة له بعنوان «من هو محمد»: «إن محمداً هو مؤسس ورسول، كـــان من عظماء الرجال الذين خدموا المجتمع الإنساني خدمة جليلة، ويكفيه فخراً أنه أهدى أمة برمتها إلى نور الحق، وجعلها تجنح إلى الـــسكينة والـــسلام، وتؤثر عيشة الزهد، ومنعها من سفك الدماء وتقديم الضحايا البشرية، وفتح لها طريق الرقي والمدنية، وهو عمل عظيم لا يقدم عليه إلا شخص أوتي قوة، ورجل مثله جدير بالاحترام والإجلال»[1].

هذه بعض الملامح المشرقة من طبيعة الرسالة المحمدية ووظيفتها، الـــتي جاءت هداية للناس أجمعين وتوجيهاً لهم إلى المناهج القويمة في حياتهم الفردية والاجتماعية على السواء، فعموم الرسالة وشمول الهداية امتـــداد حـــضاري خالد مكفول حفظه من لدن حكيم خبير.

---

(١) الأصول الفكرية لعلاقة الغرب بنبي الإسلام، ص ٧٣.

المبحث الثاني

معاني اليسر والتسامح الحضاري

في شخصية الرسول الكريم

إن سماحة الإسلام وَسِعت كل شيء، ورحمته تعالى وسعت كل شيء، وكذلك عدله، وتجسدت هذه المعاني في سيرة الرسول الكريم ﷺ.

ولكلمة «سماحة» حمولة ودلالة عميقة، وهي وإن لم يرد ذكرها في القرآن الكريم إلا أنه ورد ما يدل على معناها في كثير من الآيات والأحاديث النبوية الشريفة، من ذلك مثلاً:

- قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النور:٢٢).

- وقال تعالى: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة:١٠٩).

- وقال تعالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (آل عمران:١٣٣-١٣٤).

- وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (الشورى:٣٧-٤٠).

فرسالة الإسلام، التي جاءت خاتمة للشرائع، اتسمت بالتخفيف واليسر على المكلفين، كما اتصفت بالعدل والصفح والعفو. والتيسير مقصد من مقاصد هذا الدين، وصفة عامة لأحكام الشريعة الإسلامية، فهو دين اليسر ورفع الحرج عن الأمة، لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾، وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج:٧٨).

واليسر هو كل عمل لا يُجهد النفس، وفي الحديث الصحيح: « **إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ**»(١).

ومعاني اليسر ومظاهرها تتجلى في آيات الوحي الرباني وفي سيرة نبينا محمد ﷺ، وفي مقاصد الشريعة الإسلامية.. فهو صفة وُصف بها الكتاب العزيز، حيث جعله رب العباد ميسر التلاوة، ميسر الفهم والتدبر والذكر،

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان.

يقول تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ (مريم:٩٧).

وقد وجه الله تبارك وتعالى عباده إلى خطاب اللين والحكمة، وهذا ماثل في توجيهه لنبيه موسى، عليه السلام، وأخيه هارون حين أرسلهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾، وقال تعالى أيضاً: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ (النحل:١٢٥).

ومن الأحاديث الدالة على وصف الإسلام باليسر والرفق في كل شيء قوله ﷺ: « **إِنَّ الرِّفْقَ لا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلا زَانَهُ، وَلا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلا شَانَهُ**»[1]، « **إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ وَمَا لا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ**»[2]. وقال ﷺ لمعاذ وأبي موسى، رضي الله عنهما، لما بعثهما إلى اليمن: «**يَسِّرَا وَلا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلا تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلا تَخْتَلِفَا**»[3].

- يسر أحكام الشريعة الإسلامية:

وتحرص قواعد الشريعة الإسلامية على حماية النفس البشرية، وقد نهى ﷺ أمته عن التشديد على النفس وعن الغلو في الدين، يقول الرسول ﷺ: «**إِنَّ هَذَا الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا**

---

(١) أخرجه مسلم.
(٢) أخرجه مسلم.
(٣) أخرجه البخاري.

وَيَسِّرُوا وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدَّلْجَةِ»[1]، كما نهى عن كثرة السؤال، رحمة وتيسيراً على الأمة، كما جاء في حديث الإسراء، عندما فرضت عليه ﷺ خمسون صلاة في اليوم والليلة، حينها استثقلها ﷺ على أمته فراجع ربه جل وعلا مرات عديدة قصد التخفيف حتى وصلت خمساً بدل الخمسين، فكان من سماحة التشريع التخفيف في الأداء والتعظيم في الجزاء، فكان لهم من الأجر ما يعادل أجر الخمسين صلاة بدل الخمس.

وحين نتأمل قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾ (البقرة:٢٨٦)، يزداد المقام وضوحاً وجلاءً بيسر الإسلام وسماحته وعلو مقامه الحضاري بين المعتقدات والأديان. فقد خُففت الكثير من العبادات في مقامات متعددة، فللمسافر قصر الصلاة الرباعية ركعتين، وله أن يفطر،كما أسقطت الصلاة والصوم عن الحائض والنفساء، على أن يُقضى الصوم دون الصلاة، وجُوِّز للمريض الفطر في رمضان، ورُفع التكليف عن ثلاثة: «عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الصَّغِيرِ حَتَّى يَكْبُرَ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يَعْقِلَ أَوْ يُفِيقَ»[2].

- التسامح مع الآخر فضيلة حضارية:

ومن أعظم ما تميزت به الشريعة الإسلامية الاهتمام بحقوق الإنسان والعناية بإنسانيته، بغض النظر عن عقيدته أو لونه أو جنسه أو مركزه

(١) أخرجه النسائي، كتاب الإيمان.

(٢) أخرجه النسائي.

الاجتماعي. وتشدد آيات كثيرة على صون كرامة الإنسان بإحقاق الحق ونشر العدل بين الناس، كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل:٩٠)، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ (النساء:١٠٥).

إن حث القرآن الكريم على العدل والرحمة بين الناس هو من صفات هذا الدين، الذي استوعب كل معاني الخير والفضيلة، مع الناس كلهم، مهما اختلفت مشاربهم العقدية والقطرية، وجاء التوجيه بخاصة إلى الإنسان المؤمن بأن يمتثل مكارم الأخلاق تجاه الآخرين، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة:٨).

ويؤكد الإسلام هذه المعاني ويحث عليها حتى مع غير المسلمين، يقول تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت:٤٦).

وهناك صورة أخرى من صور سماحة الإسلام ورحمته حتى مع المشركين، الماثلة يقول تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ

﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ (التوبة:٦). وهذا قمة في الوفاء بالعهود بين المسلم وغير المسلم مما ينبغي أن نتمثله في أيامنا هذه، التي انقلبت فيها المفاهيم وانتشرت فيها أنواع من البغضاء والكراهية حتى بين أبناء العقيدة الواحدة، حيث انتشرت الفرق، وتبنى كل فريق تصوراً خاصاً به، منها ما هو بعيد عن الفهم الصحيح للإسلام الحقيقي، الذي ظل وبقي وسيبقى محفوظاً بحفظ الله لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ (الحجر:٩).

فما أحوج الناس إلى هذا الهدي الرباني، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. ولأجل الاعتبار والتبصر والتذكر نسوق بعض خصاله ﷺ في عفوه ويسره وصفحه.

- الهدي النبوي في اليسر والعفو والصفح:

إن عودة حقيقية متأنية لسيرة النبي ﷺ تجعلنا نسترشد بهديه ﷺ ونصحح أخطاءنا، ونستصوب هفواتنا، ونتقي شر كل بأس يقودنا إلى هلاك عقيدتنا وأخلاقنا ويجرنا إلى الفتن، فكان أمره ﷺ مع رعيته ثلاثة أحوال: «فإنه لا بد له من حق عليهم يلزمهم القيام به، وأمر يأمرهم به، ولا بد من تفريط وعدوان يقع منهم في حقه، فأمر أن يأخذ من الحق الذي عليهم ما طوعت به أنفسهم وسمحت به وسهل عليهم و لم يشق، وهو العفو الذي لا يلحقهم ببذله ضرر ولا مشقة، وأمر أن يأمرهم بالعرف، وهو المعروف الذي تعرفه العقول السليمة، والفطر المستقيمة، وتقر بحسنه ونفعه،

وإذا أمر به يأمر بالمعروف أيضاً لا بالعنف والغلظة، وأمر أن يقابل جهل الجاهلين منهم بالإعراض عنه دون أن يقابله بمثله، فبذلك يكتفي شرهم»[1].

فهو ﷺ لم يكن ينطق عن الهوى، فقد رسم الطريق الصحيح لأمته، وأمرهم باتباع الأوامر واجتناب النواهي، كان يأمر صحابته باللين في كل شيء، والرفق في كل شيء، ومع المخلوقات كلها، حيث قال ﷺ: «فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ»[2] كان لا يحب أن يعتدى حتى على الطائر الصغير فما بالك بالإنسان الذي كرمه خالقه!

ومنهجه ﷺ في التعامل مع الناس كلهم يتسم باليسر والتسامح، وقد تعايش ﷺ مع العقائد والأديان المختلفة، ومن أبرزها أهل الذمة.. «فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام : محاربين له، وأهل عهد، وأهل ذمة، والمحاربون له خائفون، فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام : مسلم مؤمن به، ومسالم له آمن، وخائف محارب.

وأما سيرته في المنافقين، فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم، ويكل سرائرهم إلى الله، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة، وأمره ربه أن يعرض عنهم، ويغلظ عليهم، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم... «وأما سيرته في أوليائه وحزبه، فأمره أن يصبر نفسه مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، وألا تعدوا عيناه عنهم، وأمره أن يعفو عنهم، ويستغفر لهم،

---

(١) ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد (بيروت: مؤسسة الرسالة) ١٢٦/٣.
(٢) أخرجه البخاري .

ويشاورهم في الأمر، وأن يصلي عليهم، وأمره بهجر من عصاه، وتخلف عنه، حتى يتوب ويراجع طاعته كما هجر الثلاثة الذين خلّفوا».

وأمره أن يقيم الحدود على من أتى موجباتها منهم، وأن يكونوا عنده في ذلك سواء، شريفهم ودنيئهم.

وأمره ربه، في دفع عدوه من شياطين الإنس، أن يدفع بالتي هي أحسن، فيقابل إساءة من أساء إليه بالإحسان، وجهله بالحلم، وظلمه بالعفو، وقطيعته بالصلة، وأخبره أنه إن فعل ذلك عاد عدوه كأنه ولي حميم»[1]، يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ... ﴾ (فصلت:٣٤).

هذا هو منهجه ﷺ مع أنواع البشر وأنواع العقائد، كان حلمُه يسبق غضبَه، وعفوه عقابه، ورشده غزوه، وبيَّن للناس أصول الخير والشر ومعالم الفتن، ولزوم جماعة المؤمنين، وكأنه ﷺ يعيش في عصورنا هذه، عصور الفتن والتطرف والهلع.

فعن حذيفة بن اليمان، رضي الله عنه، قال: «كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ، مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ ..قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ : نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ .. قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ

(١) زاد المعاد، ٣/١٦٠.

هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ.. قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَـرٍّ؟ قَـالَ: نَعَمْ، دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّـمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَـا قَذَفُوهُ فِيهَا .. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّه، صِفْهُمْ لَنَا؟ قَالَ: هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا.. قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُـسْلِمِينَ وَإِمَـامَهُمْ.. قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلا إِمَامٌ؟ قَالَ: فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ»[١].

هذه صورة دقيقة الوصف في استجلاء حقيقة تطابق شر بعض أهل هذا الزمان الذي كثرت فيه الفتن، وبتعبير العصر: استشرى فيه الفزع وولى فيه التسامح والصفح والعفو.. ومما يؤكد ذلك قوله ﷺ:« يَتَقَارَبُ الزَّمَـانُ، وَيَنْقُصُ الْعَمَلُ، وَيُلْقَـى الشُّحُّ، وَتَظْهَرُ الْفِتَـنُ، وَيَكْثُرُ الْهَـرْجُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّه، أَيُّمَ هُوَ؟ قَالَ: الْقَتْلُ الْقَتْلُ»[٢].

لذلك كان ﷺ يوصي أصحابه وسائر أمته أن يلتزموا الرفق في كـل شيء، والتسامح ونشر العدل بين الناس، والابتعـاد عن الغلو والتطـرف، ولم يكن يكره أحداً ما على الدخول في الإسلام وإنما كان يبـيّن ويرشـد بمكارم أخلاقه، وبقدوته الحسنة، وبصفحه وعفوه، فكان نبراساً مضيئاً لكل من كان في قلبه ذرة خير أو ألقى السمع وهو شهيد.

كان الناس عنده سواسية، لم يكن يفاضل بين هذا وذاك، بل جعـل لكل أهل عقيدة حقوقاً وعهوداً ومواثيق، احترم بنودها، وأدى حقوقهـا:

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الفتن.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الفتن.

«...وَذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ، يَسْعَى بِهَا أَدْنَاهُمْ، فَمَنْ أَخْفَرَ مُسْلِمًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لا يُقْبَلُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفٌ وَلا عَدْلٌ»[1]؛ «الْمُؤْمِنُونَ تَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ، وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ، وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ، أَلا لا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ، وَلا ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ، مَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا فَعَلَى نَفْسِهِ، وَمَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا أَوْ آوَى مُحْدِثًا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[2].

فدل ذلك على أن النصرة والمعونة إنما تكون بين المسلمين، بعضهم لبعض، وأن دماءهم متساوية في القصاص، يقاد الشريف منهم بالوضيع، والكبير بالصغير، والعالم بالجاهل، والرجل بالمرأة.

وأن المسلم إذا أمّن كافراً حُرم على عامة المسلمين دمه، حتى وإن كان هذا المجير أدناهم، كأن يكون عبداً أو امرأة أو أجيراً، ولا تخفر ذمته.

إنها قيمة حضارية كبرى أضافها تسامح الدين الإسلامي مع المعتقدات والديانات الأخرى، ففتح جسور المحبة والتكافل والتضامن، وسعى إلى نشر الأمان والسلام في الأوطان جميعاً.

---

(١) أخرجه البخاري.

(٢) أخرجه أبو داود.

المبحث الثالث
عالمية الرسالة ومظاهرها الحضارية

كثيرة هي النصوص القرآنية الكريمة التي تحدد بدقة متناهية وظيفة ومقصدية دعوة رسولنا الكريم، المبعوث رحمة للعالمين أجمعين، سيدنا محمد عليه أزكى الصلاة والتسليم؛ هذه الدعوة التي حددها الخالق عز وجل في كون محمد، عليه السلام، بعث بشيراً ونذيراً للناس كافة، دون استثناء أو تخصيص، يقول تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ:٢٨)؛ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان:١)؛ فهي دعوة ورسالة عالمية: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف:١٥٨)، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ (ص:٨٧).

ولقد أكد رسول الله ﷺ هذه العالمية في حديث رواه جابر، رضي الله عنه، قائلاً: « **أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ ...** »[١].

لقد بُعث محمد ﷺ هادياً وداعياً إلى الحق وسراجاً منيراً، مستنيراً بتوجيهات ربه، الذي أرسله بالهدى ودين الحق، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ

---

(١) أخرجه مسلم.

أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ (الصف:٩)، ودليله في هداية القرآن الكريم الناس أجمعين ذلك الوحي الإلهي، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لأنه «كلية الشريعة وعمدة الملة وينبوع الحكمة وآية الرسالة ونور الأبصار والبصائر، وأنه لا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره ولا تمسك بشيء يخالفه، وهذا كله لا يحتاج إلى تقرير ولا استدلال عليه؛ لأنه معلوم من دين الأمة»[١].

ولما كانت دعوته ﷺ شاملة لكل الناس كانت رحمته أيضاً شاملة لكل الناس، قال تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧).

ولعل من أبرز مظاهر عالمية دعوته: رسائله ﷺ إلى الأمراء والملوك، يدعوهم فيها إلى الإسلام.

تروي كتب السيرة أنه ﷺ لما رجع من الحديبية كتب إلى الروم وفارس والحبشة وغيرهم يدعوهم إلى الإسلام، فبعث بكتبه مع رسله إليهم.. وخرج ﷺ على أصحابه ذات يوم بعد الحديبية فقال لهم : «**إن الله بعثني للناس كافة**»، وأمرهم أن يؤدوا عنه، ونهاهم أن يختلفوا عليه كما اختلف الحواريون على عيسى، عليه السلام. وهكذا أصبح المتناقلون كل واحد منهم يتكلم بلغة الأمة التي بعث إليها، فبعث ﷺ ستة رسل، أرسلوا كلهم في يوم واحد: أولهم عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة، فأسلم وحسن إسلامه.

---

(١) الشاطبي، الموافقات، ٣/ ٢٥٧.

وثانيهم دحية بن خليفة الكلبي إلى قيصر ملك الروم[1] واسمه هرقل، فهمّ بالإسلام فلم توافقه الروم فخافهم على ملكه وضن به فلم يسلم، ولما قرأ كتاب النبي ﷺ طواه ثم رفعه وعظمه فروي أن النبي ﷺ قال فيه: «ثبت ملكه»[2].

وثالثهم عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى ملك الفرس، فلما قرأ كتاب النبي ﷺ مزقه، فدعا عليهم ﷺ: «**أَنْ يُمَزَّقُوا كُلَّ مُمَزَّق**»[3].

ورابعهم حاطب بن أبي بلتعة اللخمي إلى المقوقس ملك مصر والإسكندرية، واسمه جريج ابن مينا، فأكرمه، وبعث إلى النبي ﷺ بجاريتين وهما مارية بنت شمعون، أم إبراهيم، وأختها سيرين.

وخامسهم شجاع بن وهب الأسدي إلى ملك البلقاء الحارث ابن أبي شمر الغساني[4].

وسادسهم سليط بن عمرو القرشي إلى هوذة بن علي ملك اليمامة فلم يسلم[5].. كما بعث ﷺ عمرو بن العاص إلى ملكي عمان وهما جيفر وعبد ابنا الجلندا فأسلما. وبعث ﷺ العلاء بن الحضرمي ومعه أبو هريرة إلى المنذر ابن ساوى العبدي ملك البحرين[6].

---

(١) انظر رسائله ﷺ إلى الملوك عند: ابن سعد، الطبقات، ١/ ٢٥٨؛ ابن القيم، زاد المعاد، ٣/٦٩٠.
(٢) ذكره الإمام الزهري في المغازي النبوية، تحقيق سهيل زكار (دمشق: دار الفكر، ١٤٠١هـ) ص ٦٠.
(٣) أخرجه البخاري.
(٤) انظر الزيلعي، نصب الراية لأحاديث الهداية (بيروت: المجلس العلمي) ٤/ ٤٢٤.
(٥) انظر خبره عند الدمشقي في إعلام السائلين، ص ١٣٤.
(٦) ذكره ابن سيد الناس في عيون الأثر، ص ٣٣٩.

لقد بعث ﷺ رسائله إلى الملوك في مختلف بقاع العالم مؤكداً عالمية رسالته، التي وصلت في عهده ﷺ إلى الأقطار والدول عبر سفرائه ووزرائه، وهم صحابته الكرام، رضوان الله عليهم.

فهي رسالة امتدت طولاً حتى شملت آباد الزمن، وامتدت عرضاً حتى انتظمت آفاق الأمم، وامتدت عمقاً حتى استوعبت شؤون الدنيا والآخرة... فالإسلام جاء لإصلاح المجتمع وسياسة الدولة وبناء الأمة ونهضة الشعوب وتجديد الحياة، تماماً مثلما أنه عقيدة وشريعة، ودعوة ودولة، وسلام وجهاد، وحق وقوة، وعبادة ومعاملة، ودين ودنيا[1].

إن رسالة الإسلام رسالة عالمية موجهة للبشرية جمعاء؛ لأنها تأمر بمكارم الأخلاق والتسامح والإخاء والتعاون على أساس أن البشرية تشكل وحدة إنسانية متكاملة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ﴾ (النساء: ١).

لأجل ذلك اخترقت الرسالة المحمدية الحدود الزمانية فامتدت خمسة عشر قرناً من الزمان وستبقى خالدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، واخترقت أيضاً الحدود المكانية فامتدت عبر مشارق الأرض ومغاربها، واحتوت كل اللغات فأسلم العجم

---

(١) عصام البشير، واجهات الوسطية، مجلة الفرقان المغربية، العدد ٥١، السنة ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

والعرب؛ واخترقت الكثير من المعتقدات فآمن كثير من اليهود والنصارى وأصحاب العديد من الديانات الوثنية؛ واخترقت الحدود النفسية حين حصحص الحق بأحقية الإسلام وبطلان ما سواه، كل ذلك لأنه دين العدل المطلق والتسامح المثالي، الذي يدعو إلى الحوار المستمر والهادف مع الأديان والمعتقدات والمذاهب والأيديولوجيات.

- رسالة الإسلام رسالة التعايش والتساكن:

إن رسالة الإسلام تحث على تعميق التساكن والتعايش السلمي العالمي بين أبناء الشعوب عن طريق الاندماج والانصهار والتعارف بما يفضي إلى إسعاد بني البشر والتسليم المطلق لله الواحد القهار، يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات:١٣).

وقيم الإسلام المثلى تصلح لكل زمان ومكان، وتتفاعل مع التصورات والأفكار الجديدة، التي أنتجها عصر العولمة والتكنولوجيا الحديثة ومبادئ الديموقراطية والحداثة المبنية على ثقافة الحوار وقبول (الآخر).

غير أن هذه القيم والأطروحات الجديدة، إذا أفرغ محتواها من تلك الروح الربانية الخلاقة، فشلت في أداء وظيفتها، وذهبت أدراج الرياح. لذلك فإن أسمى ما ينبغي أن تقدمه هذه التصورات، التي يتم بناؤها في ضوء قيم الإسلام، هو إسعاد الإنسانية وخلق أجواء التضامن والمحبة والتعايش ومطاردة الظلم والاستبداد والأنانية.

إن بلوغ هذه الأهداف رهين، في كل زمان ومكان، بالتمثل بروح الإسلام وقيمه؛ لأن الحياة لا يمكن أن تدب في الإنسانية إلا بوحي من الله وروح منه، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال:٢٤). ويقول تعالى أيضاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ (الشورى:٥٢).

فكلمات الله، التي لا يسعها مداد بحار الدنيا، هي القادرة على بعث الحياة في كل أمة موات؛ لأن مفهوم الحياة هو خلق التوازن بين المادة والروح.

لكن ما نأسف له في زماننا، وخاصة في المجتمعات الإسلامية، هو ذلك التأثر العميق بالماديات، والتسابق نحو تحقيق الذات بالصورة المادية، غافلين الجانب الروحي لهذه الذات، التي لا يمكنها أن تعيش منفصلة عنه، لكي يبقى أزكى ما نحقق به ذواتنا هو تقوى الله عز وجل والامتثال لأوامره واجتناب نواهيه.

وقد أثبت الطب النفسي الحديث أن الإنسان الذي يعيش حياة مؤمنة تقية طاهرة بطهارة الإسلام ينعم بنفس مطمئنة هادئة، لا تصيبه حالات الاكتئاب النفسي، كما لا تصيبه بعض الأمراض المتفشية كمرض الصرع أو انفصام الشخصية، فالاعتقاد في الله وإشباع الروح بالإيمان القوي يملآن قلب المؤمن ويجنبانه العاهات النفسية التي تحبط كيانه النفسي، مصداقاً لقوله

تعالى : ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ (الرعد:٢٨)، بينما تكون النفس الأمارة بالسوء مريضة، يعتريها الخوف الدائم والارتباك المدمر.

إن المحافظة على الشعائر الدينية يقوي القدرة على التحكم في الغرائز، ويمنع الدوافع التي تكسر الحدود الاجتماعية للسلوك، فهي موانع قوية تحول دون دوافع الانزلاق الأخلاقي.

فالدين الإسلامي لذلك يقوي دعائم المجتمع، الذي يشكل الأفراد المسلمون لحمة كيانه الإنساني، قال رسول الله ﷺ: **« تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»**[١].

إن الله سبحانه وتعالى، الذي خلق الإنسان وركب فيه مجموعة من الدوافع البيولوجية والاجتماعية والنفسية، أنزل له الإسلام، دين الفطرة، بضوابط تضبط وتقدر هذه الأشياء والدوافع، بحسب حاجة الإنسان إليها، وبحسب منظومة الضر والنفع القائمة على قاعدة جلب المصالح ودرء المفاسد؛ ذلك أن من مقاصد الدين الإسلامي الكبرى الحفاظ على الدين والعقل والنفس والمال والعرض واعتبار المصالح المرسلة، التي تفسح مجالاً أوسع للعمل والإنتاج وفق مرضات الله عز وجل.

فالإسلام، الذي حمله محمد ﷺ إلى الإنسانية يتعامل مع الإنسان باعتباره مخلوقاً مسؤولاً مكلفاً امتزجت في تركيبته الخلقية نفخة من روح الله

(١) أخرجه البخاري.

وقبضة من طين الأرض.. والنفخة الروحية هي التي تدفع لا محالة كل إنسان إلى الشوق نحو أصله، يقول تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ (العنكبوت:٦١).

- تجليات إنسانية رسول العالمين:

إن محمداً ﷺ واحد من البشر، خرج إلى الدنيا عن طريق نكاح، وأنجبته امرأة بعد متم الأشهر التسعة للحمل، مرّ، كغيره من البشر، بمراحل الطفولة والصبا والشباب، وسعى في الأرض طلباً للحياة كسائر بني البشر. لم يكن صاحب جاه ولا مال ولا سلطان، بل كان صاحب فضيلة وصدق ومحبة في الأرض بين ذويه، اجتمعت له عناصر القوة والأمانة، وحظي باحترام الصغير والكبير من أهل الجزيرة العربية. له نسب شريف عريق يمتد إلى ولد عدنان، وهو واحد من العرب، من أهل قريش، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ... ﴾ (التوبة:١٢٨)، تدرج ﷺ في مراتب الكمال بفضل استقامته وطلبه لمكارم الأخلاق، حتى وصفه تعالى بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم:٤).

كانت الإنسانية قبل بعثته تتشوف وتتشوق إلى الروح العلية عن طريق التبصر والتأمل في ملكوت السماوات والأرض. استخدم أدوات المعرفة حق استخدام، حرك سمعه للحق، وبصره للنور، وفؤاده للهداية، فسلك شعاب مكة بحثاً عن الحقيقة ونور الهدى، حتى وجد نفسه متعبداً متحنثاً في غار حراء يناجي ربه ويطلب عفوه وهدايته.

وحينها جاءه النداء العلوي من رب السموات والأرض، فنـزل عليه أول نداء رباني أن ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ١-٥).

إن إشارات الوحي الأولى دعوة صريحة للعلم والمعرفة، حيث كان القرآن العظيم أول مدرسة نهل منها رسولنا الكريم، وكان معلمه خالقه وبارئه رب العالمين، الذي قال له مخاطباً: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (النحل: ٦٤).

وشملت بذلك رحمته الناس كلهم، بل المخلوقات كلها، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ...﴾ (آل عمران: ١٥٩).

كان يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، وكان يجادل أهل المعتقدات الأخرى، وخاصة أهل الشرك، بالتي هي أحسن، وهو أسّ ينبغي أن نعتمده في حواراتنا مع الأديان الأخرى والثقافات المغايرة حتى نثبت (للآخر) في هذا الزمان مدى رحابة وسعة ورحمة هذا الدين، الذي يحمل مشعل نوره محمد ﷺ إلى الإنسانية كلها.

وفي الوقت نفسه، يجب على المسلمين اليوم التأسي برسولهم، والسير على خطاه ﷺ والدفاع عن كرامة الإسلام والمسلمين، وهذه هي النصرة الحقيقية لرسولنا الكريم، قولاً وعملاً، ورب ضارة نافعة، فلعل ما أصابنا اليوم من إساءة لديننا عن طريق الإساءة إلى حبيبنا محمد ﷺ راجع إلى

التخلي عن التمسك بسنته وهديه ﷺ. فهي صفعة مؤلمة لكنها موقظة ومنهضة للهمم، ومشعرة بالندم تجاه قيمنا وديننا الحنيف، الذي هو أمانة بين يدي كل مسلم في مختلف أنحاء العالم.

- غايات الوجود الإنساني:

الدين الإسلامي آية الكون، يحمل آيات الوحي وآيات الوجود؛ وتمكين الإنسان من القدرات العقلية دعوة صريحة إلى التأمل في نصوص الوحي المنزل على سيدنا محمد ﷺ وفي آيات الكون والآفاق والأنفس.. هذه الدعوة هي السبيل إلى خلاص الأمة من التدهور والانكسار، من خلال التشبث بصفات وسلوك هذا الرسول الكريم الهادي إلى السبيل القويم.

فنظرة الإسلام إلى الإنسان إنما تكتمل بالنظر في الغايات التي حددها القرآن الكريم وهي غايات ومقاصد حكيمة تسعد الناس وتنفعهم في الدنيا والآخرة، وذلك هو الفوز العظيم، وهي التي «استخلصها علماؤنا في كثير من مؤلفاقم كالراغب الأصفهاني في كتابه «الذريعة إلى مكارم الشريعة» وهي التي حددها في ثلاث غايات تحت باب «ما لأجله أوجد الإنسان» وهي:

١- عمارة الأرض: المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ (هود:٦١).

٢- عبادة الله: المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦)، وهذه لا تتم إلا بمعرفة الله، بمعرفة ما في الكون من آيات.

٣- خلافة الله: المذكورة في قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة:٣٠) وتتم هذه باقتداء الإنسان بالباري عز وجل في صفاته وأفعاله»[1].

وهذه غايات حُددت شروطها وضوابطها ومقاصدها في كثير من النصوص القرآنية والحديثية؛ ذلك أن عمارة الأرض وتحقيق الخلافة فيها والتوجه بخالص العبادة لله عز وجل لا يتم إلا إذا استوعب الإنسان غايته من الوجود، في علاقته بخالقه وعلاقته بغيره. والرسول ﷺ عمل جاهداً لتحديد سبل تحقيق هذه الغايات عن طريق توجيه عقول الناس وقلوبهم إلى عقيدة التوحيد، ورفع الحواجز النفسية والعوائق المادية والفوارق الرزقية والعرقية، فألف بين قلوب الناس، وآخى بين المهاجرين والأنصار، يقول تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ (آل عمران:١٠٣).

إن رسول الإنسانية هو رسول المحبة والأمن والسلام لسائر الناس، على اختلاف أجناسهم ومواضعهم ومراتبهم وعقائدهم. ولعل من أبرز صور رحمته وسماحته ﷺ موقفه من كفار قريش يوم فتح مكة، في السنة الثامنة للهجرة، حينما وقف ﷺ بباب الكعبة وهم ينتظرون ما هو فاعل بهم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال رسول الله ﷺ: «**اليوم أقول لكم**

---

(١) علي عيسى عثمان، فلسفة الإنسان في الإسلام.

ما قال أخي يوسف من قبل، قال: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين «اذهبوا وأنتم الطلقاء»[1].

ومن مظاهر رحمته وسماحته وتعايشه مع أهل العقائد الأخرى تلك الوثيقة[2] التاريخية، التي تجسد حقيقة حفظ حقوق «الغير» وإن كانوا من غير المسلمين، حين جعل من بين بنودها:

- أن اليهود أمة من المؤمنين.
- وأن لليهود النصرة والأسوة بينهم وبين المؤمنين.

لقد كانت دعوة الرسول ﷺ القائل: **«من آذى ذمياً فقد آذاني، ومن خاصم معاهداً فأنا خصيمه»** دعوة صريحة تجسد معاني الحوار الهادف والتساكن المفضي إلى التآلف والتعايش، مسترشداً في ذلك كله بوحي من ربه عز وجل: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ (العنكبوت:٤٦)؛ ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ (آل عمران:٦٤).

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام.

(٢) انظر نص الوثيقة (وثيقة المدينة) في المباركفوري، الرحيق المختوم، ص ١٧٣.

- من أقوال أهل الديانات الأخرى في الرسول ﷺ:

إن المعرفة الموضوعية والمنحى الصادق في دراسة سيرة الرسول ﷺ من لدن أهل الديانات الأخرى يجعلهم لا محالة يقفون على حقيقة شخصية الرسول ﷺ وسر نجاح دعوته وامتدادها عبر الأقطار والدول في أنحاء العالم المختلفة.

وقد عبر كثير من غير المسلمين عن هذه المعرفة في أقوالهم وما كتبوه وسجلوه عن الإسلام ورسوله.. وهذه نماذج من الأقوال الصادقة والمنصفة في حق نبينا محمد ﷺ وفي حق دعوته الكريمة.

- **قالت الشاعرة الهندية ساروجني ندو:** «يعتبر الإسلام أول الأديان منادياً ومطبقاً للديموقراطية، وتبدأ هذه الديموقراطية في المسجد خمس مرات في اليوم الواحد عندما ينادى للصلاة ويسجد القروي والملك جنباً لجنب، اعترافاً بأن الله أكبر. ما أدهشني هو هذه الوحدة غير القابلة للتقسيم والتي جعلت من كل رجل بشكل تلقائي أخاً للآخر».

- **وقال المفكر الفرنسي «لامارتين[1] Lamartine»:** مقارناً بين عبقرية النبي محمد، عليه السلام، وبعض عظماء التاريخ:

«إذا كانت الضوابط التي نقيس بها عبقرية الإنسان هي سمو الغاية والنتائج المذهلة لذلك رغم قلة الوسيلة، فمن ذا الذي يجرؤ أن يقارن أياً من عظماء التاريخ الحديث بالنبي محمد (ﷺ) في عبقريته؟ فهؤلاء المشاهير قد

---

(١) لا مارتين، تاريخ تركيا (باريس: ١٨٥٤م) ج٢.

صنعوا الأسلحة وسنوا القوانين وأقاموا الإمبراطوريات، فلم يجنوا إلا أمجاداً بالية لم تلبث أن تحطمت بين ظهرانيهم. لكن هذا الرجل، محمداً (ﷺ)، لم يقد الجيوش ويسن التشريعات ويقم الإمبراطوريات ويحكم الشعوب ويروض الحكام فقط، وإنما قاد الملايين من الناس... بل إنه قضى على الأنصاب والأزلام والأديان والأفكار والمعتقدات الباطلة.

لقد صبر النبي وتجلد حتى نال النصر من الله؛ كان طموح النبي (ﷺ) موجهاً بالكلية إلى هدف واحد... هذا هو محمد (ﷺ) الفيلسوف الخطيب، المحارب القاهر للأهواء، مؤسس المذاهب الفكرية التي تدعو إلى عبادة حقة بلا أنصاب ولا أزلام، هو المؤسس لعشرين إمبراطورية في الأرض، وإمبراطورية روحانية واحدة. هذا هو محمد (ﷺ) بالنظر لكل مقاييس العظمة البشرية أود أن أتساءل: هل هناك أعظم من النبي محمد (ﷺ)؟».

- **وقال المستشرق بوسورث سميت:** «لقد كان محمد قائداً سياسياً وزعيماً دينياً في آن واحد، لكن لم تكن لديه عجرفة رجال الدين، كما لم تكن لديه فيالق مثل القياصرة، و لم تكن لديه جيوش مجيشة أو حرس خاص أو قصر مشيد أو عائد ثابت؛ إذا كان لأحد أن يقول إنه حكم بالقدرة الإلهية فإنه محمد؛ لأنه استطاع الإمساك بزمام السلطة دون أن يملك أدواتها ودون أن يسانده أهلها»[1].

---

(١) من كتاب محمد والمحمدية (طبعة لندن: ١٨٧٤م) ص ٩٢.

- **وقال المستشرق: إدوارد جيبون أوكلي:** «ليس انتشار الدعوة الإسلامية هو ما يستحق الانبهار وإنما استمراريتها وثباتها على مر العصور، فمازال الانطباع الرائع الذي حفره محمد في مكة والمدينة له نفس الروعة والقوة في نفس الهنود والأفارقة والأتراك حديثي العهد بالقرآن، رغم مرور اثني عشر قرناً من الزمان.. لقد استطاع المسلمون الصمود يداً واحدة في مواجهة فتنة الإيمان بالله، رغم أنهم لم يعرفوه إلا من خلال العقل والمشاعر الإنسانية، فقول (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) هي ببساطة شهادة الإسلام، ولم يتأثر إحساسهم بألوهية الله عز وجل بوجود أي من الأشياء المنظورة التي كانت تتخذ آلهة من دون الله، ولم يتجاوز شرف النبي وفضائله حدود الفضيلة لدى البشر، كما أن منهجه في الحياة جعل مظاهر امتنان الصحابة له لهدايته إياهم وإخراجهم من الظلمات إلى النور منحصرة في نطاق العقل والدين»[1].

- **وقال الإنجليزي برناردشو:** (برناردشو الإنجليزي ولد في مدينة كانيا، له كتاب سماه محمد):

«إن العالم أحوج ما يكون إلى رجل في تفكير محمد، هذا النبي الذي وضع دينه دائماً موضع الاحترام والإجلال، فإنه أقوى دين على هضم جميع المدنيات، خالداً خلود الأبد، وإني أرى كثيراً من بني قومي قد دخلوا هذا الدين على بينة، وسيجد هذا مجاله الفسيح في هذه القارة (يعني أوربا).

(١) تاريخ إمبراطورية الشرق (ط لندن: ١٨٧٠م) ص ٥٤.

إن رجال الدين في القرون الوسطى، ونتيجة للجهل أو التعصب قد رسموا لدين محمد (ﷺ) صورة قاتمة. لقد كانوا يعتبرونه عدواً للمسيحية لكنني اطلعت على أمر هذا الرجل فوجدته أعجوبة خارقة، وتوصلت إلى أنه لم يكن عدواً للمسيحية، بل يجب أن يسمى منقذ البشرية، وفي رأيي أنه لو تولى أمر العالم اليوم لوفق في حل مشكلاتنا بما يؤمن السلام والسعادة التي يرنو البشر إليها».

واختم هذه الأقوال المنصفة بتصور للمؤرخ «مايكل هارت» أكد فيه حقيقة وعدالة وموضوعية وعالمية الرسالة المحمدية واستمرارها وتمامها ووفاءها قائلاً في كتابه «مائة رجل من التاريخ»:

إن اختياري محمداً ليكون الأول في أهم وأعظم رجال التاريخ، قد يدهش القراء ولكنه الرجل الوحيد في التاريخ كله الذي نجح أعلى نجاح على المستويين الديني والدنيوي. فهناك رسل وأنبياء وحكماء بدأوا رسالات عظيمة، ولكنهم ماتوا دون إتمامها كالمسيح في المسيحية، وشاركهم فيها غيرهم، أو سبقهم إليها سواهم كموسى في اليهودية. ولكن محمداً هو الوحيد الذي أتم رسالته الدينية وتحددت أحكامها وآمنت بها شعوب بأسرها في حياته، ولأنه أقام بجانب الدين دولة جديدة، فإنه في هذا المجال الدنيوي أيضاً وحد القبائل في شعب والشعوب في أمة ووضع لها كل أسس حياتها، ورسم أمور دنياها ووضعها في موضع الانطلاق إلى العالم، أيضا في حياته، فهو الذي بدأ الرسالة الدينية وأتمها».

إن رسالة محمد ﷺ هي رسالة الهدى المطلق للخلق كافة، يقول تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (الفتح:٢٨)، ﴿ ... لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ (الصف:٩).

فما على المسلمين اليوم، أكثر مَن أي وقت مضى، إلا التمسك بسيرة المصطفى ﷺ، والسير على هديه والتمثل بخلقه الكريم، والاجتهاد المتواصل في قراءة سيرته وسنته من خلال الكثير من المصنفات والكتب، التي اختصت في ذكر أمجاده ومفاخره وشمائله وأوصافه، وأقواله وأفعاله وتقريراته وكل ما يتعلق بحياته العامة والخاصة، وليجتهد كل بيت مسلم في إطلاع أبنائه على شخصية نبينا الكريم وحثهم على قراءة سيرته ﷺ وحفظ بعض أجزائها، وكذا حفظ المتون الحديثية، حتى نستطيع أن ننشئ أبناءنا على معرفة نبيهم، ومن خلاله ﷺ التعرف على أصول الدين الإسلامي وصفاء ينبوعه.

غير أن التحدي الأكبر الذي نواجهه اليوم هو كيف نثبت للعالم صدق هذه الرسالة المحمدية وسريانها الهادي والشافي من هذا الطغيان والشرور والآفات والصراع الذي ساد العالم بشكل غير مسبوق. ويبدو لي أن إحدى الطرق الرئيسة إلى بلوغ هذه الغاية وتحقيق هذا المقصد تمر عبر تقديم السيرة الحقيقية لهذا النبي الكريم، وتحقيق ما دعانا إليه من عمل صالح يشمل مناحي الحياة كلها حتى نكون بحق القدوة الحسنة للعالمين أجمع.

خاتمة

يتبين مما سبق أن جذور الحضارة الإسلامية راسخة في الأرض، وأن فروعها ثابتة في السماء، نبعها عقيدة صافية وإيمان قوي، ما أحوجنا اليوم لتجديدها وتدعيمها واستثمارها.

إن تاريخ الحياة في الأرض هو تاريخ البشرية، الذي تعاقب عليه أنبياء ورسل أضاءوا الطريق لأقوامهم نحو الحق، فجاهدوا في الله حق جهاده، بالعلم والكلمة الطيبة والموعظة الحسنة، فصبروا على أذى أقوامهم وأخذوا بأيديهم، ومضوا في دعواتهم دون ملل أو كلل في سبيل إسعادهم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ (البينة:٥).

وإذا تأملنا مراحل دعوات الأنبياء والرسل تتكشف لنا حقيقة واحدة تؤكدها السنن الإلهية في الكون، وحركة التداول الحضاري، تتجلى في أفول مظاهر الفساد واندراسه واندثاره، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرًا﴾ (الإسراء:١٦).

ثم ينشئ الله من الفئة المؤمنة أقواماً آخرين.. وتشكل هذه الفئة المؤمنة في كل عهد الجذور الراسخة للحضارات. وبين كل عهد وعهد نهوض وسقوط، يقول تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ فإذا عم الفساد في قوم

وابتعدوا عن الصراط المستقيم وخلطوا العمل الصالح بالعمل السيء، وتفشت فيهم الوثنية وعم البلاء بعث الله نبياً يذكر ويجدد دعوة من سبقه من الرسل، وهكذا إلى أن ختمت هذه الرسالات برسالة إمام المرسلين وخاتم النبيئين محمد رسول الله ﷺ.. فكانت رسالته بذلك رسالة حضارية كاملة، جمعت بين العناصر الحقيقية للرقي والريادة، وشكلت حقائق راسخة ثابتة بني عليها القرآن الكريم منهجه الحضاري الإنساني، الذي توافقت مبادئه مع مبادئ الفطرة الثابتة المستقيمة التي فطر الله الناس عليها، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: ٣٠).

لقد وعد الله سبحانه عباده المؤمنين بالتمكين والاستخلاف، استخلافاً حضارياً عميقاً: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ (النور:٥٥).

إن التمثل بقيم الإسلام الحضارية هو السبيل إلى تحقيق حضارة نافعة تشمل العمران والاقتصاد والسياسة والاجتماع والتقدم في سائر العلوم والمعارف، وترسخ المعالم الإنسانية النبيلة التي تنشر الأمن والاستقرار والفضيلة بين كل الناس من مختلف الأعراق والأجناس والعقائد.

فالقيم الإسلامية النبيلة هي ثمار طيبة من شجرة طيبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

أما غيرها من الأشجار، فإن الله سبحانه وتعالى لم يبارك يوماً في ثمار الشجرة الخبيثة، التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار؛ وأمثال هذا الضرب كثير في القرآن الكريم من مثل قارون وماله ومآله، ومثل أقوام عاد وثمود وغيرهم، ممن صور لنا القرآن الكريم مآل أحوالهم وعواقبهم، يقول تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ... ﴾ (غافر:٨٢-٨٥).

إن استنطاق النصوص القرآنية الداعية إلى الاعتبار بما آل إليه السابقون من الأمم الهالكة - بسبب فسوقها وفجورها وابتعادها عن التعاليم الربانية- تتأكد حاجتنا الأكيدة إليها اليوم لأجل الاعتبار والتذكر وتصحيح المسار، والاستفادة من عبر التاريخ، والإيمان بالسنن الربانية القاطعة البرهان، المتجلية في كافة الأمكنة والأزمان .

ولعل الغفلة التي تكتسحنا اليوم تحتاج إلى استنهاض الهمم وإلى تجديد الطاقات الإيمانية، وإلى تصحيح سلوكنا والعودة إلى القيم النبيلة الطاهرة التي تكفل وتضمن لنا بناءً حضارياً بمواصفات إسلامية حقيقية، ننشدها في كل الطاقات الحية، بالدين والعلم والإخلاص في العمل.

وبالله التوفيق.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
* تقديم: الأستاذ عمر عبيـد حسنه	٥
* مقدمـــة:	٢٥
* الفصل الأول: من مقومات الحضارة الإسلامية	٢٩
- المبحث الأول: حضارة التوحيد	٣٠
- المبحث الثاني: حضارة العلم	٣٦
- المبحث الثالث: حضارة الانفتاح	٥٥
* الفصل الثاني: جذور الحضارة الإسلامية	٧١
- المبحث الأول: النبوات دليل رباني في بناء الحضارات	٧٢
- المبحث الثاني: آدم، عليه السلام، مؤسس الحضارة والعمران	٨٥
- المبحث الثالث: محطا ت رسالية في عهود نبوية	٩١
- المبحث الرابع: إبراهيم، عليه السلام، مجدد البعث الحضاري	١٠٠
* الفصل الثالث: الامتدادات الحضارية للإسلام	١١٧
- المبحث الأول: البعثة النبوية ولبنة التمام	١١٨
- المبحث الثاني: معاني اليسر والتسامح الحضاري في شخصية الرسول الكريم	١٣٢
- المبحث الثالث: عالمية الرسالة ومظاهرها الحضارية	١٤٢
* الخاتمـــة:	١٥٩
* الفهـــرس	١٦٢

وكـــــلاء التـــوزيـــــع

البلد	اسم الوكيل	رقم الهاتف	عنوانه
قطـــــر	دار الثقافــــــــــــة دار الثقافة «قسم توزيع الكتاب»	٤٦٢٢١٨٢ ٤٤١٣٤٧١	ص.ب: ٨١٥٠ – الدوحة فاكس: ٤٤٣٦٨٠٠-بجوار سوق الجبر
البحـــــرين	مكتبـــــــــة الآداب	٢٣١٠٦٢ ٢١٠٧٦٨(المنامة) ٦٨١٢٤٣ (مدينة عيسى)	ص.ب: ٢٨٧ – البحرين فاكس: ٢١٠٧٦٦
الكويـــــت	مكتبة دار المنار الإســـلامية	٢٦١٥٠٤٥	ص.ب: ٤٣٠٩٩ حولي شارع المثنى رمز بريدي: ٣٠٤٥ ٢ فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤
سلطنة عمان	مكتبـــــة علـــوم القــــرآن	٧٨٣٥٦٧٧	ص.ب: ١٩٦٠ روي ١١٢ فاكس: ٧٨٣٥٦٨
الأردن	شركة وكالة التوزيع الأردنية	٥٣٥٨٨٥٥	ص.ب: ٣٣٧١ – عمان ١١١٨١ فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣
الـــــيمن	مجموعـــة الجيـــل الجديـــد	٧٨٠٤٠-٧١٣٦٣ ٢٧٠٣٨ -٧٥٨١١	ص.ب: ٥٤٤ – صنعاء فاكس: ٢١٣١٦٣
الســـــودان	دار الريـــان للثقافـــة والنـــشر والتوزيع	٤٦٦٣٥٧	ص.ب: ١١١٦٦ – الخرطوم فاكس: ٤٦٦٩٥١
مـــــصر	دار السلام للطباعـــة والنـــشر والتوزيــــــع والترجمـــــــة	٢٧٤١٥٧٨ ٢٧٠٤٢٨٠ ٥٩٣٢٨٢٠	ص.ب: ١٦١ غورية ١٢٠ ش الأزهر – القاهرة فاكس: ٢٧٤١٧٥٠
المغــــرب	مكتبة منار العرفان للنشر والتوزيع	٧٣٣٣٢٩	نهج موناستير رقم ١٦ – الرباط
الجزائـــــر	دار الوعي للنـــشر والتوزيـــع	٠٢١٣١٧٠١٣٦٤٦ ٠٢١٣٥٤٥١١٠١٥	القطعة رقم ١٤٢ ب حي الثانوية – الروبة – الجزائر
إنكلتـــــرا	دار الرعايـــــة الإســـــلامية	(01) 272-5170/ 263-3071	Muslim welfare House, 233. Seven Sisters Road, London N4 2DA. Fax: (071) 2812687 Registered Charity No:271680

ثمن النسخة

الأردن	(٧٠٠)	فلس
الإمارات	(٥)	دراهم
البحرين	(٥٠٠)	فلس
تونس		دينار واحد
السعودية	(٥)	ريالات
السودان	(٥٠)	قرشاً
عمان	(٥٠٠)	بيسة
قطر	(٥)	ريالات
الكويت	(٥٠٠)	فلس
مصر	(٦)	جنيهات
المغرب	(١٠)	دراهم
الجزائر	(١٢٠)	ديناراً
اليمن	(٤٠)	ريالاً
* الأمريكتان وأوروبا وأستراليا وباقي دول آسيا وأفريقيا: دولار أمريكي ونصف، أو ما يعادله.		

وقفية الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني

للمعلومات والدراسات

هاتف: ٤٤٤٧٣٠٠

فاكس: ٤٤٤٧٠٢٢

برقياً: الأمة - الدوحة

ص.ب: ٨٩٣ - الدوحة - قطر

موقعنا على الإنترنت:

www.awqaf.gov.qa

البريد الإلكتروني: E.Mail

M_Dirasat@Islam.gov.qa

وقفية الشيخ علي بن عبدالله آل ثاني

للمعلومات والدراسات

جائزة الشيخ

علي بن عبدالله آل ثاني

للعلوم الشرعية والفكر الإسلامي

إسهامًا في تشجيع البحث العلمي والارتقاء الثقافي

الفكري، والسعي إلى تكوين جيل من العلماء،

تطرح موضوعها لعام ٢٠٠٧م

«حقوق الإنسان مقاصد الشريعة»

المحاور:

*** مدخل: مصطلحات ومفاهيم:**

مقاصد الشريعة؛ الحق؛ الواجب؛ الحق الإلهي؛ الحق الطبيعي؛ الحق المكتسب؛ الحريات الأساسية؛ الحرية؛ المسؤولية؛ التحيز؛ التمييز؛ العنصرية؛ حقوق الله وحقوق الناس.

* المحور الشرعي والثقافي:

منشأ حقوق الإنسان (لمحة تاريخية)؛ مصادرها؛ مقوماتها؛ الحقوق بين القيم الأخلاقية والقانون الملزم؛ جدلية العلاقة بين: مقاصد الشريعة، وحقوق الإنسان، والعقوبات (الحدية)؛ حقوق الإنسان: حقوق وواجبات معاً؛ حقوق الإنسان بين الفلسفة والعقيدة والسياسة.

* المحور السياسي:

مسوغات الاعتداء على حقوق الإنسان(قوانين مكافحة الإرهاب والطوارئ...)؛ الحقوق بين الأنظمة الشمولية والأنظمة الليبرالية والنظام الإسلامي؛ أزمة حقوق الإنسان(الأسباب والنتائج)؛ دور العقد الاجتماعي بين المواطن والسلطة؛ فاعلية الميثاق العالمي لحقوق الإنسان؛ دور منظمات حقوق الإنسان في الواقع السياسي؛ الرقابة العامة ونظام الحسبة في الإسلام.

* المحور الاقتصادي والاجتماعي:

أهمية الأمن الغذائي في بناء حقوق الإنسان؛ حق المواطنة (غير المسلمين في المجتمع المسلم؛ المسلم في المجتمع غير الإسلامي)؛ الأمن الاجتماعي (الاستئثار بالثروة وآثارها)؛ التمييز العنصري والسلم الأهلي؛ دور مؤسسات المجتمع المدني.

*** المحور التربوي:**

العولمة وتنميط الإنسان وانتهاك الخصوصيات الثقافية؛ المعرفة حق إنساني؛ مخاطر احتكار العلم؛ وجهة الإنتاج العلمي والهيمنة السياسية والعسكرية؛ المعرفة بين الارتقاء بأدوات الإنسان والارتقاء بخصائصه؛ التوازن بين الحقوق والواجبات؛ بناء إنسان الواجب؛ ضمانات حقوق الإنسان ومؤيداتها.

*** رؤية مستقبلية:**

في التأسيس لحقوق الإنسان وتفعيلها.

قيمة الجائزة (١٧٥) ألف ريال قطري.

آخر موعد لاستلام البحوث حزيران (يونيو) ٢٠٠٩م

* ترسل البحوث بالبريد المسجل على العنوان التالي:

ص.ب: ٨٩٣ — الدوحة — قطر

لمزيد من الاستفسار حول الشروط، يمكن الاتصال على :

هاتف: ٤٤٤٧٣٠٠ — ٤٣٠٩١٠١(٩٧٤+)- فاكس:٤٤٤٧٠٢٢

البريد الإلكتروني: E. Mail: M_Dirasat@Islam.gov.qa